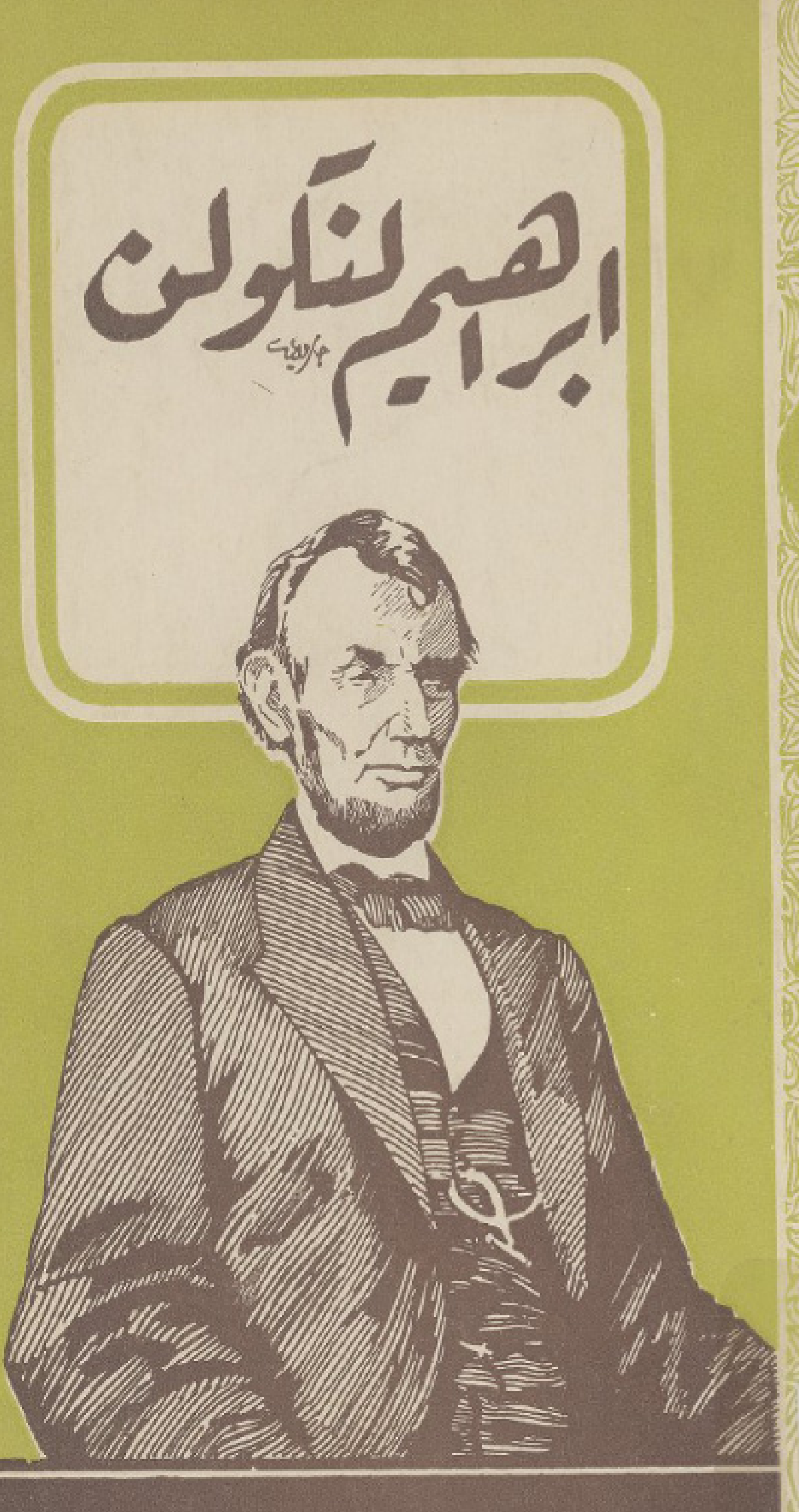
قدري قلعجي

أعلام الحرية

ابراهيم لنكولن



محرر العبيد وموحد الولايات الأميركية

٢

الطبعة الثالثة

قدري قلعجي

ابراهيم لنكولن



محرر العبيد وموحد الولايات المتح

الطبعة الثالثة

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى كانون الاول ١٩٤٦
الطبعة الثانية نوار ١٩٥١
الطبعة الثالثة آذار ١٩٥٨

ما وقعتْ على شوكةٍ عيناي، الا حاولتُ اقتلاعها لأغرس مكانها وردةً ، ما طابَ للورد منبت الشوك .

ألا ما اصعب أن يَغْرُبَ الأنسان، تاركاً وراءه هذا العالم، ولم تجعله حياته العابرة ، خيراً مما كان عليه وأسمى .

ابراهيم لنكولن

ابن الغابات

●

في أصيل حارّ من صيف سنة ١٨١٣ ، كان جندي أميركي عجوز يعود الى بيته على طريق قفر من ولاية كنتاكي ، بعد ان خاض غمار الحرب الاستقلالية الظافرة التي أعلنتها بلاده على بريطانيا العظمى . وكانت الطبيعة التي تحيط به غاية في الجمال والروعة ، فعلى جنبي الطريق تمتد غابات مترامية كثيفة لاتكاد سهام الشمس الذهبية تستطيع اختراقها ، وفي الجو صفاء وعذوبة تضاعف الشعور بهما فراشات كبيرة ملونة الاجنحة تتنقل بين أعالي الاشجار خفيفة رشيقة ، ومن بعيد يتناهى خرير السواقي مع تغاريد العصافير من كل لون ، وقد ذاب بعضها في بعض ، فألفت اغنية رائعة منسجمة يرددها صوت الغابة المجنّح ...

وبينما كان ذلك الجندي العجوز يسير ببطء وتثاقل ، على تلك الطريق الخالية الطويلة ، معتمداً على عصاه الغليظة ، رازحاً تحت عبء الآلام والذكريات ، دون ان يحفل بما يحيط به من جمال أخاذ ، اذا به يسمع صوتاً رقيقاً رفيقاً يقول له وكأنه ينبجس من الارض الطيبة : « مساء الخير أيها الجندي ! » فينظر الرجل الى مصدر الصوت ، فيجد أمامه طفلاً في حدود الرابعة من عمره ،

طويلاً وقوياً بالنسبة الى سنه ، يرتدي سترة فضفاضة وسروالاً يكشف عن ساقين هزيلتين وقدمين حافيتين، وهو يحمل باحدى يديه غصناً مشدوداً بخيط غليظ أشبه بصنارة بدائية لصيد الاسماك؛ وفي اليد الاخرى سمكة ذات اسفاط فضية هي في ما يبدو ثمرة صيده في ذلك اليوم، ويحدق في الرجل بعينين صغيرتين شهلاوين وكأن قسمات وجهه منحوتة بحد الفأس ، وفمه الملتوي يكاد ينفرج، من احدى اذنيه الى الاخرى، بابتسامة حلوة رغم قبحها، لما تحمل من خبث ساذج واعتداد صبياني.

وقال الطفل لذلك الشيخ : « من أين أنت آت يا عم ؟ والى أين تذهب؟ هل حاربت الانكليز ؟ » فابتهج الرجل لمرأى الطفل في تلك البقعة القفر ، وجلس الى جانبه يستريح قليلاً من عناء الطريق ، ويروي له خلال ذلك بعض مآثره في الحرب ، ثم يسأله عن اسمه وعن أهله ، فينتقل الطفل الى الحديث ، ويندفع فيه قائلاً :

— « انا ابراهيم لنكولن * ... ولكن أبي وأمي يدعواني ايب ... ان أبي نجار يقطع الاشجار الكبيرة لبناء الاكواخ ... وقد وعد باعطائي فأساً متى بلغت سن السابعة لاساعده في عمله. اني ما أزال في الرابعة من عمري ولكن أختي ساره تكبرني بعامين ... نعم ، انا الذي اصطدت هذه السمكة وسأتعشاها بعد قليل . اننا نسكن هناك في منتصف الغابة ، فهل تريد ان ترافقني الى البيت ايها الجندي ؟ ان أبي وأمي سيبتهجان بك.

* تلفظ : لنكن .

ولا ريب . ولطالما نصحتنا أمي بالشفقة على الجنود والشيوخ والمسافرين.. ولا شك في انها ستدعوك الى ان تبيت عندنا فتروي لنا في الليل قصص الحرب ... »

ولكن الرجل كان يريد العودة الى احضان أهله ، فلم يكد يسمع دعوة ايب حتى نهض فوضع يده المرتجفة على رأس الطفل مباركاً مودعاً، وعاود سيره ليبلغ بيته قبل هبوط الليل . وظل الصغير مكانه ينظر اليه وهو يبتعد بقامته المحنية وخطاه المتعبة المتثاقلة ، تحت أشعة الشمس الغاربة وظلال الغابة الكثيفة ، ثم ما لبث ان جرى خلفه بقدميه النشيطتين العاريتين ، فلما دنا منه ناداه بصوته اللاهث ، ووضع في يده سمكته الذهبية ، وعاد عجلان قبل ان يسمع رفض الجندي المسن لهذه الهبة المتواضعة التي اقتطعها الطفل من عشائه ...

*

وتحدر أيب من صلب المغامرين الذين أصبحوا في القرن السابع عشر رواداً لتلك الفلوات البكر في القارة الاميركية ، فبدأوا يعزقون الغابات، ويزرعون السهول، ويعمرون الاراضي الخراب ويتقدمون شيئاً فشيئاً الى قلب هاتيك البلاد . وقد لقي جده حتفه ، وكان يدعى ابراهيم لنكولن ايضاً، على أيدي بعض الهنود الحمر ، في غارة شنوها على المستعمرين البيض، او شنها هؤلاء على سكان البلاد الاصليين ، فقد كانت الحرب مستعرة دائما بين الفريقين : المستعمرون يعملون على افناء السكان الاصليين بما يدعون لأنفسهم من حق المدنية التي يحملونها معهم الى

هذه القارة العذراء، والسكان الهنود يقاومونهم ما وسعتهم المقاومة العزلاء وما حفزهم اليها حب البقاء ، متمسكين بما لهم من حق أصيل في ملكية البلاد . وقلما كان الفريقان يتهادنان ويعملان معاً في استثمار تلك الخيرات الموفورة والانتفاع بثمراتها بروح العدل وعلى قدم المساواة .

وتوزعت اسرة لنكولن بعد مقتل الجد في مختلف الانحاء ، وكان توما ، ابو ابراهيم ، في السادسة من عمره لما فقد أباه فعاش حياة تائهة في الغابات المترامية والفلوات الغفل لا يكاد يقيم في مكان حتى يُدفع منه الى مكان آخر ، حتى اذا ما بلغ مبلغ الرجال كان محصوله من ذلك التجوال ، حرفة النجارة التي تعلمها خلال نضاله من أجل العيش ، فتزوج بابنة عم له ، واستقر معها في بقعة من ولاية كنتاكي ، أنشأ فيها بيتاً حقيراً بناه بنفسه من جذوع الاشجار ، فكان أشبه بكوخ انسان متوحش او بحطام غريق ..

في هذا البيت ولد ابراهيم لنكولن في ١٢ شباط (فبراير) سنة ١٨٠٩ ، وفيه نشأ نشأته الاولى . ولكن اسرة توما لنكولن الصغيرة ما لبثت ان باعته بعشرة براميل من الوسكي واربعة جنيهات . ثم ابتلع النهر ثمن الكوخ ، اذ غرقت فيه براميل الوسكي .. فما زالت الاسرة البائسة تنتقل بدافع الحاجة من بقعة الى اخرى ، حتى حطت رحالها سنة ١٨١٦ ، في مكان مجاور لينبوع عذب ، في بقعة مهجورة من ولاية أنديانا تدعى « خليج الحمامة الصغيرة » . فعانت في بدء هجرتها شتاء رهيباً قضته في الخلاء ، تفترش الاعشاب اليابسة ، وتتدثر بجلود

الحيوان ، وتتقي البرد والمطر ببضعة اغصان نصبتها على رابية من الارض . حتى اذا ما وافى الربيع بنى توما لعائلته بيتاً صغيراً ، وما كاد يستقر به المقام في تلك الناحية ، حتى بدأ المهاجرون يتوافدون اليها ، ويبنون فيها المنازل والمتاجر ، فعمرت وازدهرت .

ولما بلغ ايب سن السابعة بر أبوه بوعده ، فأعطاه فأساً صغيرة ليحتطب بها ، فطفق يقطع الاغصان وينشر الاشجار ويساعد أباه في جميع أعماله ، يضرب معه في أعماق الغابات ، ويبني الاكواخ والمنازل الصغيرة ، ويحرث تلك البرية الخصبة ويزرعها لتنبت للأسرة ما يقيم أودها طول العام .

وكانت أمه نانسي هانكس امرأة تقية على شيء من الثقافة ، فحرصت على ان تعلم ابنها القراءة ليطالع الكتاب المقدس . وكانت قد حاولت من قبل ان تلقن أباه مبادىء القراءة والكتابة ، فلم يتعلم سوى الحروف التي يخط بها اسمه . ولكن ايب كان اكثر شغفاً بالمعرفة وجلداً عليها ، فكان اذا ما عاد من عمله المرهق ، استلقى الى جانب أمه لتقرأ له على ضوء أغصان الصنوبر المشتعلة في المدفأ ، احدى قصص التوراة الممتعة التي تركت في نفسه أثراً عميقاً لازمه في جميع أطوار حياته .

على ان هذه المتعة لم تطل كثيراً ، فان ذلك الشتاء القاسي الذي عانته الاسرة في أول عهدها بخليج الحمامة الصغيرة ، قد هدّم كيان الام تهديماً ، فساءت صحتها وزاد شحوبها ، وما زال الهزال يذيب جسدها حتى فاجأها الموت وابنها ايب لم يعدُ التاسعة من عمره .

فقطع الغلام وأبوه شجرة كبيرة صنعا منها تابوتاً اودعاه المرأة العزيزة عليهما ، وانزلاه في هوّة حفراها في قلب الغابة .

وأمضّ ابراهيم الصغير ان تموت أمه الصالحة التقية ، دون ان يصلي عليها امرؤ يحسن الصلاة ، فكتب بمشقة كبيرة كتاباً ساذجاً الى مبشر كان يغشى منزلهم في ولاية كنتاكي ، وأرسله اليه مع أحد الباعة المتجولين ، مناشداً اياه ان يأتي للصلاة على ضريح أمه ، فلبى الكاهن الدعوة بعد شهور عديدة . وكان ذلك الكتاب أول رسالة كتبها .

في معترك الحياة

•

شعر توما لنكولن بأنه لن يستطيع الحيـــاة وحيداً مع ولديه الصغيرين . فلما انقضت مدة الحداد تغيّب عن المنزل بضعة أيام ثم عاد مع امرأة صبية تدعى ساره جنستون قال لابراهيم وأختـه إنها أمهما الجديدة ، فاستقبلها الطفلان بحفاوة وابتهاج . وكانت السيدة لنكولن الجديدة ، أرملة ذات ثلاثة أولاد ، ولكنهـــا كانت أحسن حالة من زوجها ، فحملت الى بيتها الجديد بعض الاثاث والى ولديها الجديدين بعض الثياب . ولم تلبث أن أدخلت على هذا البيت شيئاً من التجديد والتحسين ، وأقنعت زوجهـــا بأن يلحق به مطبخاً وزريبة ، حتى أضحت « مزرعة لنكولن » كما كان يسميها الجيران ، مسكناً مريحاً يحيط به بستان جميل ، ويشرف على غابة غناء تتردد فيها من الفجر الى الغروب ضربات فؤوس الحطابين ...

وكانت هذه المرأة ذكية الفؤاد رقيقة العـــاطفة ، فأحسنت رعاية ولدي زوجها ، وأحاطت ابراهيم بعناية خاصة لما توسمت فيه من النباهة والنجابة ، فشجعته ووجهته وقوّت فيه اعتزازه بنفسه وثقته بالمستقبل . وكانت قضية الثقافة ، في ذلك الوسط الذي ينمو فيه ابن النجار ، قضية معقدة لا حلّ لها ، حتى انهـا

لم تعد من الهموم التي تشغل أذهان السكان ، والمسائل التي تحتل مكاناً من أحاديثهم اليومية . لكن الباحث يستطيع ان يؤكد أن هدف ابراهيم لنكولن ومثله الاعلى ومعنى حياته ، في تلك الحداثة البائسة ، كانت تنحصر جميعاً في كلمة واحدة هي المعرفة.

كان أحب شيء الى قلب ذلك الحطاب الصغير ، أن يزور أباه جمهور من الجيران الذين لا ينقصهم الذكاء الفطري وان اعوزهم التعليم الرسمي ، فيتحدثوا عن العالم الرحب ، ويروي كل منهم أقاصيصه واختباراته ، ويتناقشوا في الدين والسياسة والمرأة وهو قابع في زاوية الغرفة ، يصغي اليهم بكل جارحة فيه ، لا تفوته كلمة واحدة مما يقولون ، يفهم منها ما يستطيع فهمه ببداهته ، ويستعيد ما لا يفهمه بعد ذهابهم ، وهو مستلق على فراشه مستغرق ، في التفكير ، وملايين النجوم المطلة على الغابة العميقة تساهره من نافذة الكوخ وتناجيه بعيونها الملهمة البراقة ...

ولقد أتيح لأيب أن يختلف احياناً ، في ولاية كنتاكي وفي ولاية انديانا ، الى تلك المدارس المتنقلة التي كان يديرها معلمون رحالون لا يحسنون في الاغلب سوى القراءة والكتابة ومبادىء الحساب . ولكنه لا يكاد يتردد عليها بضعة اسابيع أو بضعة أيام ، حتى ينتزعه أبوه منها كي يساعده في اعمال هي في اعتقاده أجدى على الاسرة من الدراسة ، أو ليؤجره كخادم صغير في المزارع المجاورة له ، ولا سيما حين أيفع وأصبح فتى حاذقاً قوياً ، بحيث لم يستطع ان يواظب على المدرسة خلال تسعة أعوام كاملة سوى اثني عشر شهراً .

وكان مقر المدرسة في اكثر الاحيان بعيداً عن بيته عشرة كيلومترات او خمسة عشر كيلو متراً ، فكان عليه ان يسير بضع ساعات ذهاباً وبضع ساعات اياباً ، كي يقضي في المدرسة ساعتين فحسب . ولم تكن هذه المدرسة سوى كوخ من الخشب يجلس الصبيان فيه على الارض ، ويقرأون جميعاً في كتاب واحد يتداولونه تلميذاً بعد آخر . وليست تلك الظروف المضنية من العمل المرهق ، والدراسة المتقطعة ، والنصب الدائم ، مما يشجع طفلاً في مثل سنه على التعلم . ولكن رغبة أيب في المعرفة لم يكن ليقوى على اخمادها شيء ، فكان يصل بذكائه وجدّه ، بين تلك الفصول المتفرقة من الدراسة المتقطعة ، ويجعل منها وحدة منسجمة ويكملها بدراسته الشخصية الدائبة ، اذ كان كلما أفسحت له حرفته اليدوية وقتاً للعمل الفكري ، وضع الفأس جانباً وعكف على الكتاب جاداً مجتهداً . لقد كان طلب القوت وطلب العلم يتقسمان حياته ، فكان يفرغ للأول ساعات نهاره ويفرغ للثاني ساعات الليل .

وكان يستعيض عن الورق والحبر والاقلام ، بقطعة من الفحم يخط بها ما يشاء على صفائح من الخشب سوّاها لهذا الغرض ، ثم يغسلها فتعود بيضاء كما كانت . وقد اشترى دفتراً واحداً كان يسجل فيه بخطه الناعم الجميل ، خلاصة ما يقرأه من الكتب التي يستعيرها من هنا وهناك ويطالعها ليلاً على ضوء المدفأ ، أو ينقل اليه ما يعجبه فيها . وكان أول ما قرأه من الكتب الكتاب المقدس واساطير ايزوب وروبنسن كروزو ورحلة الحاج .

واتفق انه كان يقرأ مرة كتاباً عن حياة البطـل الاميركي العظيم جورج واشنطون ، ثم وضعه بين صفيحتين خشبيتين من جدار الكوخ . وأمطرت السماء تلك الليلة ، فابتل الكتـاب . فحزن الفتى لما أصابه من عطب ولعجزه عن شراء كتاب مثله يدفعه الى صاحبه. ومضى الى هذا يروي له حقيقة الامر ، ويعرض عليه ان يشتغل لديه ثلاثة ايام في حراثة الارض مقابـل ثمن الكتاب . فقبل الرجل ، واشتغـل ابراهيم تلك الايام الثلاثة ، واصبح ذلك الكتاب الثمين ، رغم ما أصابه من تلف، ملكاً له ، يقرأه متى شاء ، ويعيد قراءته مرات عديدة ، فيفيد افادة عظمى من دروسه وعبره ، ويعجب اعجاباً كبيراً بشخصية واشنطون وبمواقفه المجيدة في حرب الاستقلال ، وبما تجلى في هذه الحرب من آيات البطولة الفائقة والوطنية الرائعة .

وثمة كتاب آخر اطال الفتى قراءته والتمعن فيه . هو حياة « هنري كلي » . وكما اعطته حياة واشنطون مثلاً عالياً في العظمة والغيرة الوطنية ، ألقت عليه حياة هنري كلي ، وهو الرجل الذي ارتفع شأنه وعظم قدره بعد البؤس والفقر ، درساً في العصامية وعزة النفس ، لقد كان الفتى يقرأ ويفكر في ما يقرأ ، ولكم قال لاصدقائه : « ان في الكتب ما اريد معرفته . وأعز صديق لدي هو الذي يأتيني بكتاب لم أقرأه » .

على ان الاب لم يكن ليطمئن الى ما يرى من اقبـال ابنه على المطالعة ، فكان يتهمه بالكسل ، ويزعم انه لا يطيعه حين يعمل معه ، الا قياماً بواجبـه وكسباً لمعيشته ، أما رأسه فـلا

يشغله في الحق سوى تلك السخافات المطبوعة ! ولكن زوجته لا تجاريه في رأيه ، بل انها لتغضب من نعته الكتب بالسخافات وفيها التوراة والانجيل اللذان يدأب الفتى على مطالعتهما كل صباح. وتقول للرجل : « هوّن عليك ، فلربما أصبح ابنك معلماً ، بل ربما أصبح كاهناً ، فان ذكاءه ، وان دراسته ، وان طيبته ، لتنبيء بأن له مستقبلاً ذا شأن ! »

وبدأ الفتى يغشى المجتمع ويحاول دراسته بما فطر عليه من ملاحظة قوية وبصر نافذ الى الاعماق . وكان يبدو ، رغم كآبة غريزية متأصلة فيه لعلها وليدة الغابات الرحيبة التي نشأ في وحدتها ، ضحوكاً طلقاً خفيف الظل ، يحب السؤال والاصغاء ، ويحب التحدث أيضاً ، فهو يجيد الحديث ، وقد أكسبته موهبته في سرد القصص محبة الشعب . وربما كان يتحمس في الجدال احياناً ، ولكنه لم يكن ليجادل في باطل . وقد يطيب له المزاح ، الا أنه لا يجرح فيه أحداً ولا يهين امرءاً ، فقد كانت أخلاقه أبرز صفة فيه وقد وصفه أحد الذين ترجموا له ، وهو في حدود السادسة عشرة من عمره ، فقال : « كان طويل الجسم ، مديد القامة ، عريض الصدر ، ولكنه نحيف تستوقف الانظار نحافته كما يستوقفها طوله ... وكانت هيئته وحشية لشعره الاشعث المغبر ، وهندامه الساذّج المتهدل وتقاطيع وجهه المسنون الذي يبرز فيه الانف بروزاً شديداً فيبدو أضخم من حقيقته . »

وخالجه في ذلك الحين ميل الى الكتابة ، فنشر ثلاث مقالات في صحف المقاطعة دعا في الاولى منها الى الرفق بالحيوان ، وحمل

في الثانية على ادمان المسكرات ، أما المقالة الثالثة فقد عالج فيها السياسة الوطنية من ناحية جديدة لفتت اليه أنظار أحد المحامين فدعاه الى التمرن في مكتبه . وكانت فرصة نادرة اضطر ابراهيم الى رفضها ، كي لا يحرم أباه المبلغ الزهيد الذي كان يربحه من عمله الزراعي .

الا انه لم يلبث ان اتسع الافق أمامه . فقد صنع بيديه قارباً صغيراً، وشرع ينقل عليه الناس والسلع بين ضفتي نهر اوهايو . اتفق له يوماً ان حمل بعض المسافرين على قاربه من الضفة الى مركب تجاري في عرض النهر ، فنقده أحدهم قطعتين من الفضة تساويان ريالاً ، فبلغت دهشته لها وفرحه بها حداً عظيماً . وقد تحدث الى صديق له وهو رئيس للولايات المتحدة ، عن الاثر الذي تركته هذه الحادثة في نفسه ، فقال : «لم اكد اصدق عيني ! ربما رأيت ذلك أمراً تافهاً ياصديقي ، أما انا فاني أعدّه من أهم الحوادث في حياتي . لقد كان عسيراً عليّ ان أصدق اني ، وأنا ذلك الفتى الفقير ، قد كسبت ريالاً في أقل من يوم ! ان الدنيا اتسعت في ناظري وبدت لي اكثر جمالا ، وأزداد أملي في المستقبل وثقتي بنفسي» .

ثم عهد اليه أحد التجار وهو في التاسعة عشرة ، ان يحمل على احد المراكب بضاعة له الى اورليان الجديدة ، فيبيعها هناك ويعود بثمنها . وقد اختاره التاجر لهذا العمل لما عرف من استقامته وذكائه ، فقام به على أحسن وجه ، ولكنه تعرض فيه الى خطر كبير اذ سار المركب على ضفة المسيسبي فهاجمه الزنوج ليسلبوا ما فيه من بضائع ، فهمّ معاونه باطلاق النار عليهم ليرديهم

واحداً بعد آخر ، ولكن لنكولن منعه من ذلك ، واستطـــاع انقاذ المركب من غزوة الزنوج .

وقد اتيح له اثناء قيامه بهذه الرحلة التجارية ، وهي أول عمل خرج به عن نطاق الناحية الريفية التي يعيش فيها واتصل بالعالم الرحب الذي طالمـــا تشوق الى معرفته عن كثب ، ان يشاهـــد عشرات المراكب تحمل قوافل الرقيق المكبلين بالقيود كقطعان من الوحوش ، فأثارته هذه المشاهد المخيفة وبعثته على التفكير الطويل في النظام الغاشم الذي يبيح هذا الضرب من الهوان والظلم.

وكانت اورليان الجديدة اول مدينة تطأها قدمه ، فأخذته حركتها المستمرة وضجتها الصاخبة، وبهره النعيم الذي ينغمس فيه الرجال المترفون والنساء الانيقات البارعات ، ولكنه رأى الى جانب ذلك كله سوقاً للرقيق ، فشاهد ثمة رجالاً يفصلون عن ازواجهم تحت ضرب السياط ، وعذارى يُقَدن من شعورهن ليبعن بيع السلع ، وامهـــات يتلوين من الألم المجنون لانتزاع اطفالهن من احضانهن ... رأى ذلك الشاب الذي كان يدعو الى الرفق بالحيوان ، هذه الآلامَ الرهيبة المذلة التي يعانيها الانسان، فانكفأ من تلك السوق الملعونة وقد شعر بالنقمة والخزي والعار ، وقال لصحبه في المركب : « لئن اتيح لي يوماً ان أحطم هذه التجارة المجرمة ، فلأحطمنها بلا اشفاق ! »

الحب الاول

●

في ذلك العالم البكر يومئذ ، الفائض بالخير والثراء ، كان في وسع كل مغامر مقدام ان يجد متنفساً لأمله وميداناً لطموحه ؛ وكان من الشائع ان الفتى لايكاد يبلغ أشدّه ، حتى يهجر اسرته ويذهب للبحث عن الثروة ، او ليكسب كفاف يومه على الاقل.

واذا كان ابراهيم لنكولن قد تأخر عن انتهاج هذه السنة ، فذلك لان أباه لم يوفق في أعماله لتقاعسه واهماله، بحيث وجد نفسه بعد ان قضى في خليج الحمامة الصغيرة خمسة عشر عاماً ، فقيراً بائساً كعهده الاول ، مضطراً الى الهجرة من جديـــد الى ولاية ايلينويز لعله يجد فيها حظاً اوفر ، فبـــاع المنزل الذي تكبد في سبيله كثيراً من الجهد والعناء، ونهد الى هناك فبنى لاسرته كوخاً صغيراً ، وعاود كفاحه المرهق في سبيل العيش . وقد ساعده ابراهيم في نقل الاسرة وبناء الكوخ ، وحرث الارض المجاورة له . ولما اطمأن قليلا الى المصير الذي انتهى أبوه اليه ، بدأ يفكر في نفسه ومستقبله . وما لبث ان غادر أهله ليشق طريقـــه في الحياة ، وهو في الحادية والعشرين ، سن المغامرات والاحلام .

ولقد كانت تلك الطريق شاقة وعرة قاسى فيهـــا الاهوال

الشداد . فاشتغل خادماً في عدة مزارع ، وساهم في بناء المراكب الشراعية ، وفي قيادتها ، وعبّد الطرق ، وقطع الاشجار ، ونشر الاخشاب ، وسيّج الحدائق ، وأصبح بائعاً متجولاً في القرى ، ثم استخدم صانعاً لدى أحد العطارين . ولم تستطع الشدائـــد التي واجهها ، والتجارب التي أخفق فيها ، ان تثبط من عزمه وتحدّ من طموحه ، بل كان يستقبلها بوجه طلْق وقلب مرح وايمان قويّ بالغد ، فيقهرها ويظهر عليها ، وكان خلقه النبيل وظرفه الخلاب وطيبته العظمى ، تحبب الناس به وتكسبه الاصدقـــاء الخُلّص في كل وسط جديد . إلا ان امانته كانت اعظم صفاته المحببة اليهم حتى عرف بينهم باسم « ايب الامين » .

واتفق له ، خلال هذه الفترة العاصفة من حياته ، ان اضطره الفقر الى التطوع في فرقة من المليشيا تألفت لمحاربة زعيم هندي جعل همه الاعتداء على السكان البيض الآمنين حتى لقب بالصقر الاسود . وكان ينبغي لهذه الفرقة العسكرية الصغيرة ان تختار من بين اعضائها قائداً لها فاختـــارت ابراهيم لنكولن لتلك المهمة ، فكان ابتهاجه عظيماً بالثقة التي محضه اياها رفاقه ، بل كانت تلك الساعة ، كما قال فيما بعد ، من اعظم ساعات حياته .

ولم يتح لهذه الفرقة ان تقاتل الصقر الاسود ، فقد ظفر بـــه حلفاؤها قبل ان يأتي دورها في القتال . وكان كل ماعرض لها من الاحدث ، ان زنجياً أحمر من رجال الصقر الاسود ضاق باستبداد زعيمه ذرعاً ، فهرب من جوره والتجأ الى معسكر خصومه ، فلما شاهده رجال الفرقة وقد طال انتظارهم ونفد صبرهم ، فرحوا به

صيداً يهبط اليهم من غير عناء، وانقضوا عليه يريدون الفتك به، واذا بابراهيم لنكولن، ذلك الرجل الذي قتل الهنود الحمر جدّه وشتتوا أسرته وشردوا اباه، يقف من دونهم، ويحمي الزنجي بصدره معرّضاً نفسه الى الخطر في سبيل انقاذ تلك الحياة الانسانية. وقد استطاع انقاذها بعد جهد كبير.

وفي غمرة ذلك الكفاح الذي كان ابراهيم لنكولن يخوضه في سبيل قوته اليومي، كان لا ينقطع عن مواصلة كفاحه في سبيل المعرفة. فلم يكن الكتاب ليفارقه ابداً، فهو رفيقه ومعلمه. يقرأه على الطرق الطويلة التي يجتازها في تنقله من قرية الى اخرى، ويقرأه اذا جلس ليستريح في ظل صخرة او شجرة، ويقرأه في الليل كلما نفض يديه من عناء العمل وخلا بنفسه يحاورها ويناجيها.

لقد كان يريد ان يصل ... وكان واثقاً من انه سيصل ... ولكن الى أين؟ انه لم يكن ليدري على وجه اليقين ماذا ينشد، والى اين يقصد .. ولكنه كان قويّ الاحساس بكفايته، عارفاً بالمواهب التي تزخر في نفسه، وكان يشعر بميل ملحّ الى الكفاح الوطني، لانه يرى في ما حوله، على قلة معرفته ببلاده كثيراً من النقائص والمفاسد التي تقضي بالكفاح.

وشغر في سنة ١٨٣٢ احد مقاعد المجلس التشريعي في ولاية ايلنويز فرشح ابراهيم لنكولن نفسه لهذا المنصب، مدفوعاً بطموحه وجرأته العظيمين. وخطب في جمهور من الناخبين فقال لهم بصراحته المدهشة: «أزعم انكم تعرفون من انا. انا ابراهيم لنكولن ببساطة. وسياستي قصيرة عذبة كرقصة المرأة العجوز.

فاذا ما انتخبتموني فشكراً لكم ، واذا لم انتخب فما اهون ذلك عندي ! » ولم يزد على هذا شيئاً . فاقترع له ستمائة شخص منهم كلهم من معارفه في بلدة نيوسالم ، ولكن هذا العدد لم يكن كافياً فأخفق في الوصول الى المركز الذي يريد .

وثمة اخفاق آخر اصابه على اثر ذلك. فقد شارك رجلاً يدعى بيري في تأسيس حانوت للتجارة في قرية نيوسالم ، مقدماً في سبيل ذلك كل ما اقتصده من مال . ولـــكن بيري كان سكيراً مدمناً ومسرفاً متلافـــاً ، فمات بعد شهور مخلفـــاً لشريكه فيضـــاً من الديون. ولم يكن في وسع ايب الامين وفاء هذا الغرم الذي أورثه صديقه اياه ، فوعد الدائنين بتسديده اقساطاً ، وضاعف من عمله وجهده كي يبر بذلك الوعد الثقيل .

وأراد أصحابه أن يساعدوه دون ان يجرحوا كرامته وإباءه ، فسعوا في تعيينه وكيلاً لمكتب البريد في بلدة نيوسالم . فكان هذا العمل بدء عهد جديد في حياة ابراهيم ، اذ وفر له الوقت اللازم للدراسة ، ويسّر له السبيل لقراءة كثير من الصحف . وفي ذات يوم وقع في يده كتاب في علم المساحة فدفعه الفضول الى تصفحه ، ثم اكب عليه يطالعه باهتمام ، حتى ألمّ باصول هذا الفن ، وبدأ ينتفع منه في تخطيط الارض في ناحيته ووضع التصاميم للطرق والجسور الجديدة فحسنت حاله بعض الشيء .

وفي هذا العهد من حياة لنكولن ، تشرق صفحة رائعة ومؤثرة تلمس بقبس الشعر والحب والحنان ، ذلك القلب الكبير الزاهد ، العميق الحزن ، الذي هزته كثير من العواصف وعذبته كثير

من الآلام .

كان يطرق سمعه بين يوم وآخر ، من نافذة مكتب البريد ، صوت رقيق يسأله بعذوبة : «هل لديك رسالة لي ياسيد لنكولن ؟» ثم يطل على الباب وجه فتاة رائعة الجمال ممشوقة القد ، ينطوي شعرها الذهبي على شعاع من الشمس ، وتتألق في وجهها الابيض الوردي نضارة سنيها الثماني عشرة . ثم تدخل تلك الحجرة التي تتكدس فيها اكوام الصحف والكتب ، وتتوزع فيها الاوراق هنا وهناك ، لأن ابراهيم كان في حاجة دائمة الى قليل من الفوضى في ما حوله كي يستطيع العمل في راحة واطمئنان !

فاذا ما طالعه ذلك الوجه المشرق ، اضطرب كطالب فوجيء وهو يرتكب ذنباً ، والقى من يده كتاب الحقوق الذي بدأ يدرسه وعبثت اصابعه الهزيلة بشعره الأسود المبعثر ، واجاب وهو ينهض من مقعده : « سأرى ذلك أيتها الآنسة روتليدج » .

ثم يقبل الى صندوق الرسائل ببحث فيه ، وهو يعرف مسبقاً أنه لا يحتوي رسالة باسمها ، ولكنه يغالط نفسه متمنياً لو ان يده تعثر بضالتها فيهتف فرحاً : « هوذا أيتها الآنسة روتليدج ! إنه كتاب من نيويورك » . الا انه كان يبلغ آخر الرسائل التي يقلبها دون ان يجد ما يبحث عنه ، فيرفع عينيه الرماديتين الوديعتين الى العينين الصافيتين اللتين تتبعان بقلق كل حركة منـه ، ويقول : « ليس هناك من شيء هذا اليوم أيتها الآنسة ! » ويلاحظ الشحوب الذي يشيع في وجه الفتاة حين تسمع جوابه ، فيستطرد باستعجال وبابتسامة مشجعة : « ان الرسائل تتـأخر كثيراً حتى تصل ..

وهي تبقى احياناً اسابيع عدة في الطريق ... ربما وصل الكتاب الذي تنتظرينه في البريد المقبل » . فتجيب الفتاة على ابتسامته المشجعة بابتسامة خفيفة، وتهم بمغادرة المكتب، ثم تعود ادراجها وكأنها قد تذكرت امراً ، فتخرج ظرفاً كانت تخفيه في صدرها وتناوله اياه باستحياء، وهي تقول : « ارجو ارسال هذا الكتاب الى نيويورك في البريد المقبل.. » فيجيب ابراهيم بمودة صادقة : « كوني مطمئنة ايتها الآنسة . ان كتابك سيرسل دون تأخير » . ولكنها ما تكاد تغادر المكتب ،حتى يلقي نظرة على الرسالة التي تركتها بين يديه، فيقرأ على غلافها هذا الاسم الذي لا يتغير «السيد جون ماك نيل في نيويورك .. » فتتشنج قبضتاه شأنه كلما اعترته سورة الغيظ، ويطيل التأمل في ذلك الخط الناعم الصبياني، ويستسلم الى نشوة حالمة كأنه يحس بالكلمات الرقيقة الحلوة واعترافات القلب المحب التي ينطوي عليها ذلك الظرف الصغير، فاذا بغضبه يتحول الى حنان ، وترتسم على شفتيه ابتسامته الكئيبة الطيبة ، ويتمتم : « لو كانت هذه الابتسامة موجهة الي ... ! » ثم ينهض فجأة فيضع الرسالة حيث يجب ان تكون، ويعود الى مطالعة كتاب الحقوق..

كانت تلك الفتاة اكبر ابناء جيمس روتليدج الطحان المثري وأحد الوجوه البارزة في تلك الناحية. وكان هذا الرجل أول من مد يد المساعدة الى ابراهيم لنكولن حين قدم الى نيوسالم خاوي الوفاض لا سلاح له ولا حماية يستظل بها . فقد كان رئيساً لناد يختلف اليه رجال الناحية فيتناقشون في السياسة ، ويستعرضون شؤون الاقتصاد والاجتماع . فانضم لنكولن الى هذه الجماعة ،

ودأب على حضور اجتماعاتها ، حتى كاد لا يتخلف ليلة واحدة عن النديّ . ولاحظ روتليدج اهتمام الشاب بالابحاث التي يتساجلون فيها ، فدعاه يوماً الى الكلام في موضوع عيّنه له ، فاذا به يلقي خطاباً أدهش الحاضرين بما تضمنه من الآراء الناضجة والنظرات الحكيمة ، وبما دل عليه من الدراسة العميقة والاطلاع الواسع ، فأحاطوا به معجبين مهنئين ، ودعاه روتليدج الى تناول الغداء معه في اليوم التالي .

وقد حضر المأدبة عدد كبير من شخصيات ايلينويز وكرام سيداتها ، ولكن ابراهيم لم يستوقف انتباهه ولم يثر اهتمامه سوى ابنة المنزل الحلوة الشقراء التي كانت تروح وتجيء في ثوبها الازرق بهية الطلعة ممشوقة القوام رشيقة الحركة ، تقوم بخدمة المدعوين وتنشر حولهم جواً رائعاً من البهجة والمتعة بجمالها ومرحها ونضارتها. لقد راعت لنكولن الذي لم يسبق له ان سمع قهقهة أمرأة طوال طفولته ويفاعته القاسيتين ، انوثة هذه الصبية الممراح وصوتها الشبيه برنين الاجراس الفضية ، فمال نحو جاره على المائدة يسأله : «ما هذه الفتاة سعيدة الى هذا الحد ؟» فأجاب الرجل مبتسماً : «انها مخطوبة الى جون ماك نيل المثري الكبير الذي قدم حديثاً الى الناحية واشترى اراضي واسعة فيها !» .

وطفق ابراهيم يغشى دار روتليدج بدعوة من صاحبها ، فيستقبل بحفاوة حارة ومودة خالصة ، اذ أحبه أهل الدار جميعاً ورأى فيه كل فرد منهم صديقاً له يؤثره على الآخرين. والواقع انه من اجل آنا كان يمسك للجدة غزلها لتلفه بصبر عجيب ، ومن اجلها

كان يبدي اهتماماً كبيراً بأسعار الدقيق كلما حدثه الأب عن ارتفاعها او هبوطها ، ومن اجلهـــا كان يعطي اخاها دروساً في مباديء العلوم ، ويصنع لأخوتها الآخرين لعباً من خشب ، ويهز سرير الطفل الرضيع ، ويداعب الكلب الرمادي العجوز . ومن أجلها خصوصاً كان يروي قصصه للاسرة حول المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة ، وقد أحاط به الجميع مأخوذين بالمتعة الفنية التي يفيضها عليهم ، بينما النهر يهدر في الخارج ، وآنا تحوك أو تخيط في زاوية قريبة ، وهي تصغي الى حديثه بلهفة ، وترسل اليه بين حين وآخر شعاعاً حاراً ينفذ الى قلبه العميد من عينيها الزرقاوين .

لقد كانا صديقين حميمين ، ولكن آنا مخطوبة الى رجـــل تحبه ، وهي سعيدة بهذا الحب فخور به ، ولن يفكر لنكولن لحظة واحدة في ان يعكر صفو تلك السعادة البريئـــة . وفي ذات يوم حدث ما لم يكن ليهجس في بال . فان جون ماك نيل ، قد باع فجأة الاملاك التي اشتراها ، وغادر نيوسالم على ان يعود قبل التاريخ المعين ليوم الزفاف . ولكن الايام تعاقبت في اثر الايام ، ولم يعد جون ماك نيل ، ولم يرسل الى خطيبته كتاباً ينبئها فيه بالاسباب التي تعوقه عن العودة ، فقلقت آنا وساورتها الظنون ، ولم تعد أغنيتها لتمتزج بصوت الطاحونة في بهجة الصباح أو حنين الغروب . .

وفي هذه الايام الحزينة اعتـــادت الفتاة الحضور الى مكتب البريد تضع فيه رسائلها المفعمة بعتاب الخطيبة الوفية ، وتنتظر عبثاً ان تتلقى عنها جواباً من الحبيب .

وبعد اسابيع طويلة تسلم ابراهيم رسالة من نيويورك باسم الفتاة ،

فهرع يحملها الى صاحبتها المشوقـــة ، ثم غادرهـــا لتستمتع بالسعادة التي تنتظرها كما يحلو لها دونما رقيب . ولكن لم تمض ايام حتى بدأ يشاهد آنا تسير في اروقة الطاحونة شاحبة صامتة كالشبح ، ولاحظ انها انقطعت عن زيارته في مكتب البريد لتودع فيه رسائلها او لتسأل عن رسائل صاحبها. فأدرك ان ذلك الرجل الانيق الجميل الذي عقدت عليه الفتاة آمالها ، قد اعلنها القطيعة في تلك الرسالة المشؤومة التي حملها اليها بنفسه .

وما لبثت نيو سالم وجوارها ان اخذت تتهامس بحديث الخطبة التي نقضت ، والرجل الذي خان عهده . وعلم الجميع ان جون ماك نيل انما كان رجلاً مشبوهاً تطارده العدالة ، وان الاسم الذي عُرف به في نيو سالم كان اسماً مزوراً يستتر به . وحاولت الالسن ان تلوك سيرة روتليدج الذي منحه ثقته قبـــل ان يستقصي امره ، ومسلك الفتاة التي أحبته وأخلصت له .

بيد أن ابراهيم لنكولن لم يتنكر للاسرة المنكوبة ، ولم يتخل عن الفتاة المخدوعة او يدعها بين براثن الوحدة القاتلة .. فالى جانب العبادة الصامتة التي كان يتوجه بها اليها ، نشأت شفقة رحوم ، وانبثق أمل ضعيف ، متردد ، حيران .. أمل بتعزية آنا ، وحملها على نسيان من خدعها ، وادخال السعادة الى قلبها بالحنان والحب . ولم يكن ابراهيم على شيء من الجمال ، فقد كان كما يصفه مؤرخوه «مديد القامة ناحل الجسم منحدر الكتفين صغير الرأس ، ذا يدين وقدمين تدهش الناظر ضخامتها ، وقسمات نابية دميمة» . ولكنه بدأ يغزو قلب الفتاة بالعطف الذي يعمرها به ، وبالاخلاص الذي يدفعه

لتسايتها عن همها اللاج ، واحاديثه الممتعة التي تنقلها الى عالم رحب لم تألفه من قبل . فسكنت اليه واستراحت لصحبته ، وشرعت ترافقه في النزهة على ضفاف النهر ، فيروي لها آلام ماضيه وآمال مستقبله ، وهي كلما ازدادت معرفة بنفسه الكبيرة ازدادت ميلاً اليه وتعلقاً به .

واصبح لنكولن يحلم ببناء عش رغيد للطائر الجريح الذي لاذ بحبه . فشرع يستعد لنيل إجازة الحقوق ، متابعاً في الوقت نفسه عمله في الحقل السياسي . وشغر في تلك الايام مقعد جديد في مجلس ولاية ايلنويز : فرشح نفسه له وقام برحلة انتخابية كبدته كثيراً من الجهد والعناء ، ولكنها اوصلته الى بغيته المنشودة إذ اسفرت الانتخابات عن فوزه بالنيابة .

وحينئذ فقط ، شعر ابراهيم ، وقد اطمأن الى مستقبله ، بأن في وسعه البوح بحبه .. فاذا لدى الفتاة مثل الذي لديه ، واذا بهما يتواعدان على الزفاف متى جاز امتحان الحقوق ونال اجازة المحاماة . وكان عليه ان يسافر الى فانداليا عاصمة الينويز لحضور جلسات المجلس ، فاشترى حلة جديدة وسافر الى حيث يدعوه الواجب ، بيد انه كثيراً ما كان يعود لزيارة خطيبته او يكتب لها الرسائل الطوال محدثاً اياها عن حبه ، وعن سعادته ، وعما يعده للمستقبل من مشاريع عظيمة .

على أن الفتاة ما كادت تفارقه ، حتى تداعت قواها ثانية ، وبدأت تشحب وتذوي باستمرار ، كزهرة انتزعت من الارض التي تغذيها والماء الذي يرويها . ولقد كانت تريد ان تعيش لتسعد حبيبها وتكون سعيدة معه ، الا ان هذه الارادة القوية لم تصمد طويلاً امام الداء الواغل ، واذا بابراهيم يتلقى يوماً رسالة تنبئه بان آنا

مريضة مشرفة ، وانها تهذي باسمه وتلح على ان تراه ، فيهرع الى نيو سالم رجلاً مرتاعاً ، لكنه لا يراها الا لكي يودعها الوداع الاخير .

وكان اثر الفاجعة في نفس لنكولن عظيما ، حتى خيل لاصحابه أنه فاقد بها رشده . فقد هام على وجهه أياماً كاملة ، تائهاً في البراري وعلى ضفاف الانهر ، وفي الاماكن الحبيبة التي كانت تضمه وآنا فيتناجيان فيها ساعات طويلة . وكثيراً ما شوهد في المقبرة ، معانقاً الضريح الرطب ، مردداً : « إن قلبي هنا ... مدفون معها ! » .

ولم يتعزّ لنكولن عن حبيبته ابداً ... وتضاعفت منذ تلك السنة كآبته الفطرية ، المنطوية تحت مرحه الظاهر ، وهو لم يكن في الأغلب الا مرحاً مصطنعاً . وانطبعت على قسمات وجهه سمات ألم عميق ، واصبح عرضة لنوبات سوداوية تعتريه بين حين وآخر فتتركه منهوكاً محطماً . وقد قال مرة لاحد خلانه : « ربما ظهر مني حين أكون بين الناس انني أستمتع بالحياة في نشوة ، ولكنني اذا آويت الى عزلتي أخذتني غالباً حال من الهم لا اجرؤ معها على ان احمل مدية ! »

كان ابراهيم لنكولن حينذاك في السادسة والعشرين من عمره .

في تلك السن الباكرة فقد لنكولن الشاب حبه ، وبقي للنكولن الانسان واجبه . بقي له امل النضال في سبيل عالم احسن . بقي له السعي لتحقيق قوله :

« ما وقعتْ على شوكة عيناي ، الا حاولتُ اقتلاعها لأغرس مكانها وردة ، ما طاب للورد منبت الشوك .

ألا ما أصعب ان يَغْرُبَ الانسان ، تاركاً وراءه هذا العالم ، ولم تجعله حياته العابرة ، خيراً مما كان عليه وأسمى . »

محامي سبرنغفيلد

•

بعد عامين من وفاة آنا ، قدم ابراهيم لنكولن امتحان الحقوق، ونال إجازة المحاماة . ولم يكن في وسعه أن يمارس هذه الحرفة في بلدة صغيرة مثل نيوسالم فارتحل عنها الى مدينة سبرنغفيلد. وقد غادرها في سنة ١٨٣٧ كما دخلها قبل ست سنوات ، خالي الوفاض ، لا يملك سوى كيس من الكتب والثياب . الا انه ما لبث ان وجد عملاً لدى محام متواضع كان يستخدمه في كل شأن من شؤونه ، فأخذ يتقدم تقدماً سريعاً في مهمته الجديدة ، تساعده في ذلك ملكته الخطابية القوية ، وحرصه الدائم على استكمال ثقافته وتوسيع أفقه ، حتى أصاب حظاً من النجاح غير يسير .

وسرعان ما التمع اسم لنكولن في عالم المحاماة ، وعُرف خطيباً أخاذاً قويّ الحجة متدفق البيان ، ومحامياً عدلاً لا يدافع الا عن حق مضاع او جناح مهيض. وقد وجه مرة الى احد المحامين الناشئين نصيحة تدل على مسلكه ، قال فيها : «إعمل على أن تكون محامياً أميناً ، فاذا لم تستطع ان تكون اميناً وانت محام ، فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً» .

ومما يؤثر عنه أنه ترافع مرة في قضية ، فتبين له اثناء دفاعه

وحماسته فيه ، انه إنما يدافع عن مجرم حقيق بالعقاب لا عن متهم اهل للتبرئة ، فألقى باوراقه القضية في ردهة المحكمة ، وغادرها الى بيته متفجر الضمير مهتاج الاعصاب ، ثم كتب الى رئيس المحكمة كتاباً يعتذر له فيه عما كان منه ويقول : « لقـد كانت يداي ملوثتين ، فعدت ادراجي الى بيتي لأطهرهما من الادران » .

وجاءه رجل ليقيم قضية على آخر يطالبه فيها بستمائة ريال ، فلما درس اوراقه وأنعم النظر فيها ، قال له : « إن في مقدوري ان اربح لك القضية ، وفي وسعي ان أحصل لك ستمائة ريال انكب بها اسرة هانئة نبيلة . ولكنني لن ارافع في قضيتك ، ولن تمس يدي نقودك . لقد اتيت الي تسألني النصيحة ، واني لاسدي اليك نصيحة لا اسألك عليها أجراً ، وهي ان تذهب من فورك الى بيتك ، وتبحث عن سبيل آخر يكون شريفاً ونزيهاً ، كي تصيب من ورائه الستمائة ريال التي ترجوها ! »

وكان ذا نظر ثاقب في إدراك الحقائق المحيطة بالقضايا التي يرافع فيها ، وتبديد الغموض الذي يكتنفها . ومن اقواله المشهورة : « اذا استطعت أن اجرد القضية من جميع ملابساتها المعقـدة ، وأبسطها أمام المحكمين جلية واضحة فقد ربحتها » . ومن القضايا التي رافع فيها وأكسبته شهرة واسعة ، قضية شاب اتهم بقتل آخر اثناء مشاجرة ليلية ، وأكد أحد الشهود بعـد أن حلف اليمين القانونية ، أنه رآه بعينه وهو يوجه الى الضحية الطلقة النارية القاتلة ، وكادت هذه الشهادة تدين المتهم وتنزل به شديد العقاب . ولكن لنكولن ينهض فجأة ويسأل الشاهد : « كيف استطعت ان تتبين

دقائق الفاجعة وقد حدثت ليلاً ؟» فيجيب الرجل : « لقد كان القمر ساطعاً فاستطعت أن ارى في نوره كل شيء» واذا بالمحامي البارع يخرج من جيبه تقويماً يتضمن الاشارات الفلكية ، ويتجه نحو القضاة قائلاً : « ان الشاهد يكذب ايها السادة ، ففي الساعة التي وقعت فيها الجريمة من تلك الليلة ، لم يكن القمر قد بزغ بعد .. » فدهش الحاضرون ، وفي مقدمتهم شاهد الزور ، لهذه المفاجأة العظيمة ، وأطلق القضاة سراح المتهم البريء .

وكان سكان ايلنويز موزعين على مسافات شاسعة من الارض ، فكان ثمة محاكم متنقلة يطوف فيها القضاة والمحامون من مكان الى آخر لسماع الشكاوى وتحضير المرافعات ، وقد جرت العادة بأن يقوموا في كل ستة أشهر برحلة على الجياد تسمى «الدائرة» يطوفون فيها على جميع قرى الولاية ، فيعقدون الجلسات القضائية في المدارس او في بيوت المتقاضين ، ثم يبيتون في الفنادق ان كان ثمة فنادق ، أو في دور الفلاحين . وقد اشترك لنكولن في رحلات عدة من هذا القبيل ، فكان لها اثر كبير في نفسه وفي تطوره الفكري ، لما عرف خلالها من حياة بلاده وما خبر من هموم شعبه . كما اكسبته شهرة ومحبة كبيرتين لدى أوساط واسعة من مواطنيه الذين «كانوا» يسمونه «ايب العجوز» وهو لقب جديد بدأوا يطلقونه عليه باكراً لكثرة التجاعيد التي كانت مرتسمة على وجهه .

وكما اشتهر لنكولن في المحاماة ، اشتهر في ميدان السياسة وتبوأ فيها مركزاً مرموقاً ، لما تحلى به من صفات الرجولة ،

والتمسك بقويم المبادىء ، والحب العظيم لوطنه وشعبه . فتجدد انتخابه لمجلس ولاية ايلينويز ثلاث مرات متواليات في سني ١٨٣٦ و١٨٣٨ و١٨٤٠ ، وكانت له في هذا المجلس مواقف مشهودة في مهاجمة القوانين الرجعية والنظم الاستبدادية والدفاع عن الحرية والديموقراطية وحقوق الشعب على اختلاف أجناسه . وقدم للمجلس خلال نيابته الثانية احتجاجاً على نظام الرق واقتراحاً بالغائه في ولاية ايلينويز ، فلم يجد بين الواحد والثمانين نائباً وشيخاً من اعضاء المجلس سوى عضو واحد رضي بان يوقع معه ذلك الاحتجاج على الظلم .

وفي اوائل سنة ١٨٣٧ تعرف لنكولن بفتاة تدعى ماري أوين ، بينما كانت تزور بعض اقاربها في سبرنغفيلد ، فنشأت بينهما صداقة مبعثها التشابه في بعض الميول والاهداف التي ينزعان اليهما ، واسترسل كل منهما الى الآخر في أحاديث ودية تفصح عن دخيلة نفسه ، وبدرت منهما في احدى وثبات العاطفة ، بادرة مبهمة كأنها اعتراف بالحب وكأنها وعد بالزواج . ولكن ، ما تكاد الفتاة تغادر سبرنغفيلد حتى يحس لنكولن بان تلك البادرة العابرة قد ربطته بقيد ثقيل ، فيستبد به الانقباض والهم ، وتساوره رغبة قوية في التحرر من ذلك الرباط ، فيكتب اليها رسالة رقيقة ينذرها فيها بانها إن تزوجته فانها ستكون فقيرة دون أن يكون في وسعها اخفاء فقرها ، ثم يسألها هل في استطاعتها ان تتحمل ذلك في أناة وصبر ؟ ثم يقول : «وقد يكون ما قلته لي بصدد حبنا من قبيل المزاح . ولربما قد اسأت فهمه أنا ايضاً ، وحملته على غير محمله الصحيح . فاذا كان ذلك

كذلك ، فان رجائي اليك ان تنسيه من الالف الى الياء ، واذ كنت جادة فيما قلت ، فأرجوك ان تفكري في الامر ملياً ، وأن لا تتخذي أي قرار ، مهما يكن ، قبل ان تستوفي الموضوع درساً وتمحصاً. أما أنا فان اتراجع عما فاهت به شفتاي ، على ألا يكون هنالك أي مانع لديك . بيد اني انصح لك بأن تظلي بعيدة عني ؟ وان تقلعي عن فكرة الزواج مني ، فانت ما تعودت حياة الشقاء والتقتير ، ولعل هذه الحياة ان تكون أشد عسراً مما تتوهمين » :

ثم أعقب هذه الرسالة باخرى قال فيها : « .. من طبيعتي ان اكون صادقاً وخصوصاً مع المرأة .واريد في هذا اليوم ان أكون كثر صراحة من اي وقت مضى ، وان انصفك اكثر من قبل ، هذا اذا كان من الانصاف تركك وحيدة . لكي اسهل الامر واجلو كل لبس وغموض ، أقول لك ان في وسعك أن تطرحي موضوع الزواج جانباً ، وان تنتزعيني من فكرك الى الابد ، اذا ما كنت اشغل حيزاً ما من تفكيرك واهتمامك ، وأن تهملي هذه الرسالة فلا تجيبي عليها . وأذهب الى أبعد من ذلك فأقول : لئن كان في هذا راحة لك واطمئنان لضميرك ، فانا استحلفك أن تفعليه . وإياك ان تسيئي فهم كلامي ، فأنا لا أدعوك الى قطع علاقتنا وفصم عرى صداقتنـــا . إن هذا الامر لم يخطر لي في بال ، وكل ما اريد أن تفهميه هو ان صداقتنا بعد الان ، تتوقف عليك وحدك . فاذ كانت هذه الصداقة لم تفدك في شيء ولم توفر لك السعادة التي تنشدين ، فكوني واثقة بأنهـــا لن تفيدني انا ايضاً ولن توفر لي السعادة التي اريد . »

وقد استجابت الفتاة لنصحه ، فأعلنت القطيعة بينهما ...

ولكن يبدو ان المرأة كانت تأبى الا ان توقع في شباكها هذا الرجل الزاهد فيها . ففي خريف سنة ١٨٤٠ التقى لنكولن بفتاة اخرى تدعى ماري تود كانت آية في الجمال والذكاء والاناقة ، فتوثقت بينهما صلة من المودة والصداقة والاعجاب . وكادت هذه الصلة القوية تربط بينهما برباط الزوجية ، لولا ان ابراهيم عاودته سوداويته قبل الزفاف بيوم واحد ، وراجعته ذكرى آنا روتليدج تلك الزهرة الطيبة التي عطرت حياته يوماً ، والتي هي اكثر وداعة وبراءة من هذه الزهرة الثانية التي تهب نفسها له ، وان كانت الاولى لا تضاهيها جمالاً وتألقاً فنقض خطبته واعتزل عمله وهجر أصحابه ، وكاد يستسلم للقنوط المميت ، ولم يصرفه عن الانتحار الا اشفاقه من ان يغادر الحياة ولم يصنع فيها شيئاً يذكّر بأنه عاش ، ولم يقرن اسمه بصنيع كان فيه للناس جدوى .

بيد أن ماري تود لم تتخلّ عن رجلها الذي آثرته على غيره من الشبان اللامعين . وما زالت تعزيه عن فجيعته وتسليه عن همه ، وتحيطه بألوان المودة والاخلاص ، حتى رضي بأن يبني بها ، فتزوجا في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٢ ، دون أيّ احتفال ، واقاما اشهراً في غرفة باحد الفنادق ، حتى توفرت له الاسباب فاستأجر بيتاً صغيراً .

ولم يتحدث ابراهيم لنكولن عن حياته الزوجية بما يكشف الستار عن دخيلتها ، ولكن مترجميه يذهبون الى انه كان وزوجه على خلاف لما كان هناك من اختلاف في الخلق بينهما ، اذ كانت شغوفاً

بالحياة المرحة الصاخبة تنشدها فيما تقيم من سهرات انيقة وما تؤم من مجالس حافلة ، وكان هو يؤثر الحياة العائلية الهادئة والعمل المثمر والدراسة المستمرة . على ان الذي لا ريب فيه هو ان كلاً من لنكولن وزوجته كان محباً لرفيقه مخلصاً له ، يخصه بعنايته وعطفه ، وقد أنجبا ثلاثة أولاد كان الاب العظيم يغدق عليهما كنوز قلبه ، وهو القلب الذي قالت ماري تود عنه « انه كان كبيراً بقدر ما كانت ذراعا صاحبه طويلتين » ! ولا ريب ايضاً في أن هذه المرأة كان لها أثر لا يستهان به في صعود زوجها الى المقام الرفيع الذي تسنمه ، فقد كانت عظيمة الطموح ، وكان يسرها ان تقول : « يلوح لي انني سأذكر في التاريخ الى جانب رجل عظيم » .

والواقع ان احــداً من الناس لم يكن ليعرف ، مثلما كانت تعرف هي ، لم كان لنكولن عظيماً ..

وكانت ، كما قال أحد مترجمي لنكولن : «ترى بما يشبه الوحي الطريق المؤدية الى عليا المراتب . وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرئاسة . لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته في ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت ترده الى الطريق السوي ان هو أوشك ان يتنكبها » .. لقد كانت تعرف دائما ، بشعور غريزي عجيب ، الوقت الذي يجب ان يتقدم فيه والوقت الذي يجب ان يلزم فيه مكانه .

أما هو فقد وصفه احد مؤرخيه في تلك السن بقوله : «كان يسير في شوارع سبرنغفيلد جيئة وذهاباً ، مرتدياً ثيابه السوداء

العتيقة ، وعلى رأسه قبعته العالية التي كان يحفظ فيها اوراقه ، او كان يسوق عربته في الطرق الموحلة التي انشئت حديثاً في الولاية. وكان يبدو متعجباً ، مفكراً ، متسائلاً ، حزيناً ، أو رفيقاً مداعباً. وقد ظل قادراً على استمالة الناس واكتساب صداقتهم . ولكن كان من الصعب ان يدرك احد كنهه .. »

●

وكان اهتمام لنكولن بشؤون بلاده يتضاعف باستمرار ، ونفوذه يتسع في أوساطها السياسية ، فيتكاثر منافسوه وحساده تبعاً لذلك . وقد حاول أحدهم مرة ان يطعن في كفايته لصغر سنه وكثرة مطامعه ، فرد عليه بأنه اكبر في العمر منه في ألاعيب السياسة ، وقال انه في الحقيقة يود أن يرقى ويتقدم ولكنه يفضل الموت على ان يفعل ما فعله ذلك السيد المنافس له ، فيغير مبدأه مقابل ثلاثة آلاف دولار في العام ، ثم يضطر الى اقامة مانعة للصواعق فوق بيته ليحمي ضميراً آثماً من غضب الرب !

وقد أذاع خصومه أنه ملحد ليبعدوا عنه انصاره الذين يزدادون يوماً بعد آخر ، واستشهدوا على ذلك بمقاطعته للكنيسة. وفي الواقع انه لم يكن ليختلف الى اية كنيسة ، ولكنه برر مسلكه هذا بقوله : « متى سجلت احدى الكنائس على مذبحها أن الصفة الوحيدة التي تتطلبها من رعاياها ، هي تطبيقه للقانون الذي وضعه المسيح في الانجيل اذ قال : « احبب الرب الهك من كل قلبك وكل نفسك وكل فكرك ، وأحبب قريبك كنفسك » فحينئذ استطيع الانتساب الى هذه الكنيسة من كل قلبي وكل

نفسي . بيد انه كان قد قاطع الكنيسة ، فقد كان يقرأ الكتاب المقدس بمتعة وشغف . وقد قالت زوجه في حديث لهـا بهذا الصدد : « ان ايمانه بالله كان اشبه شيء بالشعر الحر يجيش في نفسه غير مقيد بوزن أو قافية » .

ولما انتهت مدة عضويته في مجلس ايلنويز للمرة الرابعة رفض أن يرشح نفسه لها للمرة الخامسة ، كما رفض قبول منصب حاكم ولاية اوريغون ، لأنه كان يريد توسيع افق نضاله ، ويطمح الى ان يكون نائباً عن ولايته في الكونغرس بواشنطون ، فيحمل الى عاصمة الولايات المتحدة رغبات وطنه الصغير ، ويعنى في الوقت نفسه بمصالح الامة والانسانية . وقد رشح نفسه لهذا المنصب فأخفق في الوصول اليه ، الا انه لم يلبث ان ظفر به في سنة ١٨٤٦ وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

وكانت مسألة الرقيق تحتـل مكاناً هاماً متعاظماً من حياة الولايات الاميركية ومن سياستها العامة ، وقد شطرت الرأي العام شطرين كبيرين وألبت الامة بعضها على بعض . ولم يكن في وسع لنكولن ان يظل بعيداً عن قلب هذه الحركة التحريرية العظمى التي تتمخض بها بلاده . فان الاصوات المعولة والمشاهد الشنيعة التي سمعها وشاهدها في سوق اللحم البشري ، وهو ما يزال فتى أغر القلب نقي السريرة ، قد خالطت حياته ووجدانه ، فهي ما تفتأ تتردد في سمعه وتتعاقب امام بصره ، مسممة افراحه ، مروعة لياليـه .

لطالما دعا ، منذ قدم احتجاجه على نظام الرق في مجلس ايلينويز ،

الى محو هذا العار عن امتـــه وعن الجنس البشري ، والى اقرار حقوق اخوته السود الرازحين تحت أسوأ الاستعباد وأقسى الهوان ولطالما اغلقت الآذان عن سماع صوتـــه وقبول دعوته ، فعلى أصدقائه أو خصومه بعد الآن ، ان يقفوا ، مختارين أو كارهين ، موقف التأييد او العداء من قضية اولئك المضطهدين. فان البركان الذي ظل يزمجر عشرات السنين سينفجر مرجله ويهز أركان العالم الجديد . وليكونن ابراهيم لنكولن الفكر الملهم واليد العاملة في ذلك الانفجار العظيم .

تجارة الرقيق

●

كان المستعمرون الاسبان والبورتغاليون الذين هاجروا الى اميركا الوسطى لاستيطانها أو لجلب الثروة منها، يعانون في مطلع القرن السابع عشر مشقة كبرى في العمل ساعات طوالاً في تلك الاراضي البكر تحت الشمس المحرقة . فاقترح واحد منهم يدعى لاس كازاس إحياء نظام العبودية الذي قضي عليه أو كاد يقضى من مئات السنين . . واستقبل اقتراحه بالبهجة والحماسة من اولئك المغامرين الذين سبق لهم أن أفنوا قبائل بأسرها من الجنود الحمر سكان البلاد الاصليين حتى اضطروا من بقي منهم الى الجلاء عن تلك البقاع؛ وسرعان ما تنظمت غزوات كبرى على القـــارة الافريقية ، تنقض على تلك البلاد الآمنة بالحديد والنار، فتبيد القرى ، وتمثل بالشيوخ والنساء والاطفال ، وتعذب ذوي الارادة الصلبة من الرجال الذين يدافعون عن عائلاتهم وبيوتهم ، ثم تحشد قوافل لاعداد لها من الزنوج المقيدين بالسلاسل ، وتحشرهم في مراكب خاصة بهم ، ليرسلوا الى الارض الاميركية ، في رحلة طويلة مضنية يموت خلالها المئــــات منهم فيلقون طعاماً لمـــا واكب تلك المراكب الملعونة من الاسماك والحيتان .

فاذا ما وصلت هذه القوافل من المواشي البشرية الى اميركا، سيقت الى أسواق الرقيق ، حيث تباع بحفنة من النقود الذهبية، من اناس يريدون ان يعيشوا على حساب الآخرين. ثم يرسل العبيد الى المناجم وحقول الارز ومزارع القطن وقصب السكر، فيعملون فيها تحت لهيب السوط عملاً دائباً منهكاً لزيادة غنى أسيادهم ، ويصبحون مجرد سلع تنتقل من يد الى يد ، تنتزع منهم ازواجهم وبناتهم ، ويباعون متى انحطت قواهم بثمن بخس ، ثم يلقون على قارعة الطريق ليموتوا حين يدركهم العجز، اذا لم يصرعهم سيدهم في نزوة من نزوات غضبه دون ان يُسأل عنهم لأن من حقه التصرف بهم كما يشاء .

وانقضى على ذلك قرنان عمّ فيهما الاسترقاق المستعمرات الاميركية ، واتسعت تجارة الرقيق حتى كاد يكون لها الشأن الاول في البلاد .

ولما اخذت الرأسمالية الاميركية في النشوء ، وتحررت البلاد من الاستعمار الانكليزي بعد حرب عنيفة ظافرة، اتحدت الولايات الاميركية في وطن واحد ذي حكومة واحدة وعلم مشترك ، على ان تظل لكل ولاية منها حريتها التامة في تقرير موقفها من مسألة الرقيق.

وكانت المبادىء الديموقراطية التي نمت بذورها مع نمو الرأسمالية قد وجدت سبيلها الى « اعلان الاستقلال » فجاء فيه ما نصه :

« اننا نثبت هذه الحقائق البديهية : ان جميع الناس قد خلقوا متساوين، وقد منحهم خالقهم حقوقاً معينة لا يجوز ان تنتزع منهم، ومن هذه الحقوق : الحياة والحرية والسعي نحو السعادة. ومن اجل

صيانة هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس ، مستمدة سلطتها العادلة من رضى المحكومين. وان أية حكومة مهما كان شكلها ، اذا غدت هدامة لهذه الغايات ، فمن حق الشعب ان يغيرها او يلغيها ، وينشيء مكانها حكومة جديدة يضع اساسها على ما يبدو له من مبادىء ، وينظم سلطتها على ما يتراءى له من اشكال ، تضمن له السلامة والسعادة . »

وعلى الرغم من ان هذه المبادىء ظلت حبراً على ورق ، لان المساواة التي تنوه بها لم تتحقق بين الابيض والاسود ، والغني والفقير ، والرجل والمرأة ، فأنها ادت الى يقظة عامة وتطلع مستمر الى تحقيق هذه المساواة المنشودة ولاسيما بين الابيض والاسود لانها كانت القضية الاولى التي يضعها تطور الحياة يومئذ أمام الامة الاميركية الناشئة .

وكان نظام الرق ، هذا الشكل البدائي من أشكال استغلال الانسان للانسان ، متطوراً في الولايات الجنوبية بنوع خاص ، لانها كانت بلاداً زراعية ، تتألف الثروات فيها من الاراضي الواسعة ومن حقول الارز ومزارع القطن وقصب السكر ، التي تحتاج جميعاً ، في ظل النظام الاقطاعي السائد ، الى أيدي الزنوج للعمل فيها ، ولا تحيا بدونهم. فكان لتجار العبيد في هذه المناطق نفوذ كبير وسلطة عليا ، وكانت ارادتهم قانوناً نافذاً في ارادة البلاد وشؤونها السياسية .

أما الولايات الشمالية فكانت قد سارت خطى أوسع في مضمار الحضارة ، وكان الشكل الاقتصادي السائد فيها هو النظام الرأسمالي الناشيء القائم على التجارة والصناعة ، وليس يتفق نظام الرقيق مع

هذا الشكل من أشكال الاقتصاد ، لان العمل في ظله لا يتطلب من العامل القوة الجسدية المجردة ، بل يقتضي أن يكون الى جانبها شيء من البداهة والاختصاص والمهارة الفنية ، ولا يمكن ان تتوافر هذه الشروط في الرقيق الذي يعيش في مستوى منحط ويعامل كالبهائم العجماء. ومن ثم أخذت بعض هذه الولايات تعمد الى الغاء الاسترقاق في بلادها شيئاً فشيئاً ، وكانت ترجو الغاءه ومنع الاتجار بالعبيد في الولايات الاميركية كلها ، كي تتحرر الايدي العاملة فيها ، وتتحسن حالة الطبقة الكادحة ، فتجد الصناعة النامية العمال الذين تحتاج اليهم .

وكان لا بد لهذين القسمين الكبيرين من القارة الاميركية ، من ان يتنازعا ويصطدما لاختلاف مصالحهما . وقد بدأ النزاع أول الامر ، حين طفق العبيد يهربون من الولايات التي تقر الاسترقاق الى الولايات التي ألغته ، فيتمتعون في اراضيها بحق الالتجاء ، ويتحررون من قيد العبودية ، ويجدون شروطاً أحسن للعمل وللمعيشة . ثم بلغ ذلك النزاع أشده حين انتظمت الشمال كله حملة أدبية قوية تطالب بالغاء الاسترقاق من جميع الولايات الاميركية المتحدة .

وفي الواقع ان بذور هذه الحملة كانت تنبت منذ وقت طويل . فمنذ سنة ١٧٧٥ ، أي قبل نشوب الثورة الاميركية ، أسس بنيامين فرنكلين جمعية في بنسلفانيا غايتها السعي لالغاء الرق . وما لبثت ان قامت في عدة ولايات شمالية جمعيات اخرى تدعو للهدف نفسه . ثم عقدت هذه الجمعيات مؤتمراً في سنة ١٧٩٤ تبعته مؤتمرات

عديدة في السنين التي تلتها .

ولما بدأ التوسع الاميركي يتجه نحو الغرب ، هب خصوم الاسترقاق يمانعون في ادخاله الى الولايات الجديدة. وفي سنة ١٨١٨ لما دخلت ايلينويز في الاتحاد الاميركي ، كانت في البلاد عشر ولايات تقرّ مبدأ الاسترقاق مقابل احدى عشرة ولاية مناهضة. وفي السنة التالية تقدمت مازوري والاباما تريدان الانضمام الى الاتحاد ، فوضع حينئذ اتفاق مازوري الذي يمنع دخول الاسترقاق الى الاراضي الواقعة شمالي الدرجة السادسة والثلاثين والدقيقة الثلاثين ، وهو التخم الجنوبي لولاية مازوري ، باستثناء هذه الولاية.

واتخذت مقاومة الاسترقاق شكلاً جدياً عنيفاً في العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، لما برز التصادم الاقتصادي بين الشمال والجنوب واستفحل . فظهرت في بوسطن سنة ١٨٣١ جريدة تدعى « المحرر » انشأها رجل انساني يدعى وليم غريسون ، جعل همه دعوة الرأي العام الى مقاومة الاسترقاق مقاومة جدية . والتفت حوله جماعة من المثقفين تدين بعقيدته وتنشر دعوته . وقام الكتاب والشعراء يهاجمون الرق ويعددون مساوئه وفي طليعتهم الفيلسوف رالف امرسون . وتألفت جمعيات عديدة جعلت همها الاحتجاج على نظام العبودية في عرائض شعبية ترفعها الى الكونغرس ، ومطالبة المجالس التشريعية في الولايات الشمالية بسن القوانين التي تحمي العبيد الهاربين من الجنوب ، ثم طفقت تنظم الحركات السرية لتهريب العبيد الى الولايات التي يصبحون احراراً فيها .

ووقف المزارعون الكبار من اهل الجنوب ، موقف المعارضة

من هذه الحملة المنظمة المتعاظمة ، يشايعهم في ذلك اعضاء الكونغرس والكتاب واساتذة الجامعات ورجال الدين وزعماء السياسة واكثر المثقفين الذين يعيشون في ظل النظام الاقطاعي العبودي وينتفعون منه ويتخلقون بأخلاقه. وكان هؤلاء يحاولون رد هجمات خصومهم وانتقاد حججهم ، فزعموا ان الزنوج لما جيء بهم من افريقيا كانوا على جانب كبير من الانحطاط والتوحش وقد اصبحوا في مدة وجيزة في حال راقية نسبياً ، وقالوا ان الرقيق مهما اشتدت تعاسته فانه يظل أحسن حال من العامل الذي يستغل صاحب المصنع اتعابه دون أن يتولى احد امره حين يشيخ او يمرض ، وذهبوا الى ان الله قد اجاز الاسترقاق واوصى بحمايته اذ قال في وصاياه العشر لبني اسرائيل: « لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ... » !

كوخ العم سام

•

بعد مقالات فرنكلين وتوم بين وغريسون وامرسون ، تداولت الأيدي سنة ١٨٥٢ رواية كبيرة باسم «كوخ العم توم» للكاتبة الشهيرة بيتشر ستاو ، وصفت فيها حياة الزنوج واظهرت مظالم الاسترقاق ، فتركت صدى قوياً في المجتمع الاميركي ، وترجمت الى اكثر لغات العالم ، وطالعها ابراهيم لنكولن غير مرة فكان لها اعظم الاثر في نفسه وفي توجيه رأيه وعزمه نحو مقاومة هذا النظام الغاشم .

وتبدأ هذه الرواية الانسانية بحوار يدور بين المستر شيلبي والمستر هالي : الأول رجل نبيل القلب كريم الخلق يعيش في مدينة ب. بولاية كنتاكي ، والثاني تاجر رقيق قوي البنية مترف المظهر تزين اصابعه خواتم كثيرة وتتدلى من صدره سلسلة ذهبية غليظة ؛ ونعلم من هذا الحوار ان السيد شيلبي قد تورط في الديون ، وانتقلت وثائق ديونه الى يدي التاجر هالي ، ويريد هذا ان يستبدل بتلك الوثائق بعض الزنوج الذين يعملون في مزرعة شيلبي ؛ ولو قيل لشلبي منذ أيام انه قد يبيع يوماً أحد عبيده من أحد النخاسين ، لاستنكر ذلك وسخر بقائله ، ولكن ها هو ذا تحت

رحمة واحد من هؤلاء ... وها هو التاجر هالي لا يكتفي بعبد واحد يدعى توم، بل يريد معه طفلاً مولّداً جميلاً في الخامسة من عمره يجيد الرقص والتمثيل والغناء ... فاذا قال له ان لهذا الطفل اماً تعمل في خدمة زوجته وهو يريد تحطيم قلبها بفراق ابنها ، دعاه الى بيع الأم نفسها في سوق النخاسة باورليان الجديدة فان امرأة في صباها وجمالها حرية بان تباع بارفع الاثمان... واذ علم ان محدثه لا يقدم على مثل هذا الأمر اخذ يهونه عليه ويزينه له ويشرح خلال ذلك المبادىء « الانسانية » التي يتبعها في عمله فلا ينتزع الطفـــل من احضان امه بعنف بل بحكمة ورفق ، لان العنف خطة سيئة تفسد «البضاعة» وتجعلها غير صالحة للاستغلال ، وقد شاهد بنفسه امرأة جُنت لان سيدها أساء معاملتها ثم ماتت بعد اسبوع ..

وتدخل اليزا أم الطفل على الرجلين لبعض شؤونها ، فتشعر شعوراً خفياً بان النخاس يساوم على شراء ابنها ، ثم تسمع حواراً يدور بين سيدها وزوجه فتعلم ان الصفقة قد تمت ، وان التاجر سيأتي في اليوم التالي لاستلام ابنها والعم توم معاً ، فيمتلىء قلبها رعباً ، وتقرر الهرب بابنها..ولو حدث هذا قبل ساعات لهربت اليزا مع زوجها ، فان لهذه الصبية زوجاً من ابناء جلدتها يدعى جورج هاريس كان يعمل في مصنع للاكياس، وقد أهله ذكاؤه لاختراع آلة لتنظيف القنب أحدثت ثورة في هـــذه الصناعة ، ولكن ما كاد يعلم سيده بذلك حتى أعـــاده الى الخدمة في منزله لان الوسط الصناعي يكاد يجعل منه رجلاً ذا كرامة وشخصية..

وعبثاً حاول صاحب المصنع اغراء السيد بالمال ، فانه ابى الا ان يعيد عبده الى حياة المسكنة والذلة ، ثم طفق يمعن في اهانتـــه وتعذيبه ، وانتهى الى منعه من زيارة مزرعة شيلبي حيث تقيم زوجته ، وقرر ان يزوجه بامرأة اخرى ، فالقانون لا يعترف بزواج العبد ، وفي وسع سيده ان يفرقه عن زوجته متى شاء ... وقد ضاق هاريس بهذا السيد الجاهل الغشوم ، وتساءل من الذي جعله سيداً له يستخدمه كالحيوان ويتصرف في امره كما يهوى ، وهو خير منه وأجدر بالحياة ؟.. ثم غافله وهرب عازماً عـــلى الوصول الى كندا ليعمل ويجمع من المال ما يشتري به زوجتـــه من سيدها ويعيشان حرين سعيدين .. وجاء الرجل يودع زوجته التي لا يرى في الدنيا امرأة اجمل منها ، ويودع ابنه الجميل الظريف وهو يتساءل في سره ما فائدة هذا الجمال والظرف وقد يباع الطفل بين لحظة واخرى لمن لا يعرف ؟!

وانطلق الرجل في طريق المجهول . وبعـــد ساعات انطلقت المرأة في الطريق نفسها ، وهي لا تدري ان كانت طريقها ستلتقي بطريقه يوماً ... وارادت ان تمر قبل رحيلها بكوخ العم توم لتحذره من المصير الذي ينتظره ...

والعم توم هو الزعيم الروحي لابناء جنسه في تلك المنطقة ، يقبلون الى كوخه افواجـــاً ليقيموا الصلاة فيـه وليستمعوا الى عظاته الدينية ، فهو أعرقهم في المسيحية واكثرهم ورعاً وتعبداً ، وهم يجلونه ويعدونه في صفوف القسس... وقد عز على اليزا ان ينتزع هذا الرجل الطيب من بين أهـــله وقومه ليباع في سوق

العبيد ، ولكن العم توم لا يكاد يعلم من اليزا ان سيده انما اضطر الى بيعه لانه مدين لاحد النخاسين ، وأنه اذا لم يسدد للرجل دينه اضطره الى بيع البيت وجميع من فيه ... لا يكاد العم يعلم ذلك حتى يرفض الهرب لانه لا يريد ان يخون عهد سيده ... إلا انه لا يكاد يلمح الفراش الذي يرقد فيه اولاده الثلاثة حتى تختنق الكلمات في حلقه ويسترسل في بكاء أليم ...

ويأتي النخاس غداة اليوم التالي ليستلم بضاعته ، فاذا باليزا قد فرت ، فيلعن ويهدد ويلوح بسوطه ، وينطاق في اثر الامة الآبقة كما ينطلق كلب الصيد في اثر الغزال المذعور ، ويكاد يلحق بها على الرغم من العراقيل التي وضعها الزنوج والسيد شيلبي في وجهه ، ولكن اليزا كانت اماً توشك ان تفقد ابنها ، وقد قوى هذا الشعور من عزيمتها فضمته الى صدرها في تدله واستماتة ، كأنها تستمد من انفاسه الحارة وذراعيه الدافئتين قوة خارقة . وفي وثبة مريعة لا يقوم بها سوى يائس او مجنون ، اجتازت النهر الفاصل بين ولايتين على كتل من الجليد انطبعت عليها آثار اقدامها ملطخة بالدم ... حتى خيل لهالي الذي وقف ينظر اليها ذاهلاً وهي تقفز كالهرة الوحشية ان الشياطين قد تقمصت جسدها النحيل ...

عاد هالي حانقاً ساخطاً ليستلم بقية البضاعة ... وكان العم توم يقرأ في الكتاب المقدس ، ويشكر الله على انه سيباع وحده وان زوجه واطفاله سيبقون في أمان ... وعبثاً كانت الزوجة تقول ان السيد شيلبي قد اخطأ ، وان توم قد وفاه اضعاف

ثمنه ، فهو مدين له بحريته وكان يجب ان يحرره منذ وقت بعيد، فقد كان العم يعتقـــد بأن من واجب العبيد ان يتفانوا في خدمة السادة دون ان يطمعـــوا منهم في ثواب . وكان يحب السيد شيلبي ولا يستطيع ان ينسى انه كان طفـــلاً صغـيراً عندما وضعته امه بين يديه وطلبت منه ان يحرسه ويرعاه لأنه سيكون سيداً له !..

ولم يدرك الأطفال الثلاثة حقيقة المصير الذي حل بأبيهم، الا عندما شاهدوا التاجر يكبل قدميه بالحديد .. على ان العبـــد تظاهر بعدم الاكتراث ، ومضى مطمئناً الى وعد السيدة شيلبي بانها لن تفقد اثره وستسترده متى توفر لها المال ..

ويرحم القـــدر العم توم فلا يساق الى الجنوب حيث يشقى العبيد في الاعمال الزراعية ويموتون تحت لهيب السياط ، بل يشتريه رجل كريم من ولاية لويزيانا كان على ظهر السفينة التي تنقل هالي وعبيده ، وكانت ترافقه طفلة له تدعى ايفاسنت كلار أشبه بملاك من السماء ، اخذت تتنقل في أرجاء السفينة وتطوف بين العبيـــد المقيدين بالسلاسل وكأنها شعاع الشمس او نسيم الصيف ، فأنست بوداعة العم توم المنكب طول يومه على الكتاب المقـدس سلوته الكبرى وصديقه الاوحد، وشعر هو بميل قوي اليها أنساه شجنه المقيم .. ثم سقطت الفتاة الى الماء يوماً ، فجازف العم بحيـــاته لانقاذها ، وقوّى هذا الحادث الصلة الناشئة بينهما فأبت مبارحة السفينة الا اذا اشترى ابوها هذا العبد الطيب الجريء .. وسألها الأب : « ولماذا تبغين شراءه ، هل تريدين استخدامه كجواد؟

فأجابت : «بل اريد ان أجعله سعيداً » وضحك الأب لهذا السبب الطريف .. واشترى العم توم ، وذهب به الى منزله الفخم في لويزيانا حيث تقيم زوجته المتكبرة القاسية التي لاتفتأ تأخذ عليه معاملة العبيد كأنهم أزهار نادرة وكأنه يقتنيهم لمجرد الزينة ... ولكن إيفا كانت تضفي على المنزل فيضاً من أنسها وبهجتها . وقد جعل السيد من العم توم مرافقاً لها في نزهاتها وتنقلاتها فعاش في ذلك الجو السعيد سنتين كاملتين لا يمضه سوى الحنين الى أهله ..

ثم يظلم هذا الجو المشرق فجأة حين تعاني إيفا الصغيرة وطأة السل ، وتشعر الفتاة بان العالم العلوي بات قريباً منها ، ويخالجها الشوق الى هذا العالم الذي كثيراً ما حدثها العم توم عنه وقال لها انه عالم الحرية والمحبة والمساواة ؛ فانها كانت تحس بأن العالم الذي تعيش فيه مفعم بالظلم والبغض والتفاوت الجائر ، وقد كانت وصيتها لابيها قبل موتها ان يعتق عبيده : « فان هؤلاء المساكين يحبون أطفالهم كما تحبني .. وقد رأيتهم يبكون وهم يتكلمون عنهم.. ومن الفظاعة يا أبي ان تحدث هذه الاشياء ! . »

وماتت الطفلة بعد ان قصت جدائل شعرها الذهبي وأهدت خصلات منه الى أصدقائها السود ليفكروا كلما نظروا اليها في انها احبتهم وأخلصت لهم.. وبكاها هؤلاء اكثر مما بكتها امها ذات الخلق المتعالي العجيب .. وظل الأب غائب الذهن شارد الفكر أياماً واسابيع ، ثم أخذ يفكر في وصية ابنته وشرع في اتخاذ الاجراءات القانونية لتحرير العم توم .. ولكن القدر عاكس العم

هذه المرة وفرض عليه العبودية الى الأبد ، فقد قتل سانت كلير ذات مساء وهو يحاول التوفيق بين سكيرين متخاصمين ، وليس اقسى من مصاب الارقاء عند وفاة سيد رحيم . ان الطفل ليفقد أباه فيجد من يعطف عليه ويرعـــاه ، وينشأ في حماية القانون والاصدقاء ، اما العبد فان القانون يجرده من كل حق كأنه قطعة من جماد ، فاذا فقد سيداً رفيقاً متسامحاً فقد خسر كل شيء ..

وكذلك كان شأن العم توم وزملائه حين قتل السيد سانت كلير ، فقد قررت زوجته بيعهم جملة لاعتقادها ان العبد اذا ما تحرر ساءت حاله فاستسلم للكسل وتردى في الموبقات .. وهكذا سيق بضعة عشر مخلوقاً ليباعوا في سوء النخاسة بمدينة اورليـان الجديدة كما يباع المئات من أمثالهم كل يوم .. وكان تجار السلع البشرية يحرصون في هذه السوق الانيقة النظيفة على إماتة مشاعر الزنوج بالحياة الماجنة الصاخبة في هذه المرحلة التي ينتقلون خلالها من طور الانسان الى طور الحيـــوان . . وكان بعض الزنوج يستسلمون لهذه الحياة اللاهية التي يغرونها اغراءً فينسون او يتناسون ما هم فيه من ذل وهوان ، بينما يظل الآخرون واجمين في زوايا المتجر ، أو يعكفون على الكتاب المقدس يقرأون ويرتلون !.

وبدأ المزاد .. وكان البائع يعلن مزايـــا بضاعته ، ولكن المشترين كانوا يفحصون الرجال والنساء فحصاً دقيقاً مهيناً ليتحققوا جودة البضاعة بأنفسهم ...

وكان العم توم وسبعة زنوج آخرين بينهم فتاة حسناء تدعى اميلين من نصيب السيد لوغري احد مزارعي القطن على ضفاف النهر الاحمر .

وبدا عذاب العم توم منذ ذلك اليوم على أشد ما يكون العذاب روعة وقسوة ... فهو يرتدي أخشن الثياب ، ويأكل أسوأ الطعام ، وينام على كومة من القش ، ويعمل اكثر مما يستطيع الحصان أن يعمل ..

وشعر لوغري بان العم على شيء من المعرفة والخبرة بالحياة ، فبدا له أن يجعله مراقباً لسير العمل في المزرعة اثناء غيابه عنها ، ولكن هذه المهمة كانت تقتضي في نظره الخشونة والقسوة وهما صفتان تنقصان العم توم ، فاراد ان يعوّده عليهما . . . رآه مرة يضع شيئاً مما جناه من القطن في كيس امرأة تدعى كاسي كي لا تجلد لانها قصرت في الجني ، فطلب منه ان يجلدها بنفسه توطئة لاعلاء مركزه ، فرفض هذه المهمة وكان الجلد من نصيبه هو ... وظن لوغري انه قد أذله بذلك وأخضعه ، ولكنه ما كاد يعيد عليه أمره مرة أخرى حتى قال وهو يمسح الدم الذي يسيل من وجهه : « انا على استعداد للعمل قدر ما تشاء ، وسأعمل ليلاً ونهاراً اذا وجب ذلك ، لكني لا أقدم على أمر كهذا ... » فيغضب لوغري ويزمجر ويأمر بجلد الرجل حتى يعجز عن الحركة شهراً كاملاً ..

ويأتي رفاق توم اليه في الغرفة المهجورة التي طرح فيها محطم الجسم متخناً بالجراح ، وينصحونه بالطاعة ، ويقولون له في ما يقولون : « ليس في هذه المزرعة النائية من يستطيع ان يمنع لوغري من سلخ جلودنا وإلقائنا طعمة للكلاب . . . وليس هنا من قانون يحمينا او يحميك . . . لا بد من ان تستسلم لهم والا قتلوك واستنزفوا دِماءك قطرة فقطرة .. ليس أمامنا نحن الزنوج

غير سبيل واحد هو القبر .. ان الوحوش والطيور لتجد مأوى تلجأ اليه ؛ بل ان الافاعي والتماسيح لا تعدم ملاذاً ... أمـا نحن فليس لنا ملاذ ولا ملجأ .. ولو ذهبنا الى المستنقعات لطاردتنـا كلاب الاسياد وفتكت بنا فقتنا أشنع ميتة ! .. »

وكان في طليعة الناصحين له المشفقين عليه ، هذه المرأة الغامضة ، كاسي ذات الماضي المخيف ، وهي امرأة مولدة ذاقت من السعادة ألواناً ، وعانت من الشقاء اهوالاً ، وتنقلت بين عشرات الاسياد حتى اقتنعت بأن اللعنة قد لصقت بجنسها الى الأبد .. فان ابنتها الضائعة مملوكة لمن لا تعرف ، ولا ريب في أنها تسير في السبيل الذي سلكته امها ، وسيسير أبناؤها سيرتها أيضاً .. فان هذه اللعنة لا نهاية لها ! ...

ولكن كاسي كانت تعجب بشخصية العم توم ، وترى فيه ظاهرة فريدة بين من تعرف من أبناء الجنس الملعون . فهو لا يخشى العذاب ، ويقابل الضرب والتنكيل بايمان منقطع النظير . وقد أيقن الزنوج وأيقن لوغري نفسه بأنه أقوى من السيد المسيطر . فالتفوا حوله يصغون الى ما يحدثهم عنه من أنباء العالم الآخر ، متعزين بذلك عن حرمانهم في هذا العالم ..

وتتفق كاسي يوماً مع الامة الثانية اميلين على الهرب ، وتضعان لذلك خطة محكمة ، فالسيد لوغري يؤمن بالخرافات ويخـاف الاشباح ، وعلى السطح فوق مخدعه غرفة مهجورة كان قد سجن فيها امرأة زنجية حتى ماتت ، وشاع بعد ذلك ان شبح المرأة قد سكن الغرفة وهو لا يفتأ يئن ويعود ويصرخ ويلعن كلما أرخى الليل سدوله على المزرعة النائية ... فتظاهرت المرأتان بالهرب

واختبأتا في هذه الغرفة التي لا يجرء على دخولها احد ... وبحث لوغري عنهما حتى أعياه البحث، ثم جاء بالعم توم وسأله هل يعرف مكانهما ؟ فأجاب أنه يعرف ذلك ولكنه لن يقول شيئاً .. فجعل السيد يرغي ويزبد وأنشأ يضربه حتى أشرف على الموت ..

وظل العم ينازع أياماً وهو اعظم ما يكون غبطة بدنو رحيله الى العالم الآخر.. وضاعف من غبطته وصول الفتى جورج ابن سيده القديم شيلبي للبحث عنه واعادته الى أحضان أهله ، فمات مرتاح الضمير ، مطمئناً الى ان السيدة شيلبي لم تنسه وقد وفت وعدها أخيراً .. وصعق الفتى جورج لمشهد العم توم وهو يموت منتفخ الوجه دامي الاعضاء لشدة ما ضرب وعذب ، فأقسم على قبره ان يفعل كل ما في وسع انسان فرد ان يفعلـــه لاستئصال العبودية من أرضه وبلده ..

وتنتقم كاسي للعم توم بترويع السيد لوغري كلما آوى الى فراشه، اذ تهبط عليه من غرفتها في زي الاشباح فتخيفه بالاصوات المنكرة والاخيلة المرعبة ، وتلاحقه بذكرى الزنجية القتيل، حتى يدمن الشراب ويسرف فيه ويقضي جوعاً .. فتحمل المرأة من درجـــه رزمة من الاموال التي سرقها من عرق الكـــادحين الذين اعتصر حياتهم واستنزف دماءهم ، وتهرب الى كندا ..

وفي كندا تلتقي المرأة ذات الماضي الفاجع بذينك الزوجين الباسلين : جورج هاريس واليزا ، اللذين اجتمعا بعد الفراق ، وبلغا ارض الحرية بعد مطاردة عنيفة ، ووجدوا العمل الشريف الذي يؤمن القوت لاسرتهما الصغيرة التي زادت عضواً جـــديداً

بمولد ابنة سميت باسم امها اليزا ..

ويشاء خيال المؤلفة بيتشر ستاو ان تعرف كاسي باليزا ابنتها الضائعة ، وان يجد جورج أخته التي فرقت بينه وبينها احداث الزمان ، واذا هي قد بيعت في الجنوب فاشتراها رجل كريم احبها واستصحبها الى جزر الهند الغربية حيث حررها وتزوجها ثم توفي فجأة فورثت عنه ثروة كبيرة .. ثم يشاء خيال المؤلفة ان يسافر الجميع الى فرنسا حيث يلتحق جورج باحدى الجامعات الكبرى ويظفر بمكانة علمية ممتازة .

فكرة تجد ممثلها

●

لقد كانت فكرة تحرير العبيد تنمو اذن منذ نادى بها فرنكلين في سنة ١٧٧٥ ، أي قبل مولد لنكولن بثلث قرن ، لكنها لم تتعدّ كونها فكرة انسانية لا تجد صدى مؤيداً الا في قليل من القلوب النبيلة ، ولم تستطع ان تجند الجماهير الواسعة حولها الاحين برزت كحاجة اقتصادية لا يستغني الشمال عنها في تطوره الصناعي المتعاظم . حينئذ اصبحت تلك الفكرة الانسانية قوة مادية فعالة تحرك ملايين الناس ، ووجدت في نفس ابراهيم لنكولن الكبيرة متسعاً لها فتمثلت فيه وتجسدت في شخصه .

ولم تكن الخطب الحماسية التي كان لنكولن يلقيها في مجلس ايلينويز ، والمقالات القيمة التي يرسلها الى بعض الصحف الاميركية ، والدعوة الحارة التي يقوم بها في الاندية والاوساط التي يغشاها ، لترضي ضميره وتحمله على الاعتقاد بأنه قد ادى واجبه الوطني والانساني في العمل على تحقيق الفكرة التي استغرقت ضميره . بل كان يعرف ان سعيه في هذا السبيل يجب ان يشتد ، وان النطاق الذي يعمل فيه يجب ان يتسع ، وان الوقت والجهد اللذين ينذرهما له يجب ان يتضاعفا . ومن ثم كان يتطلع الى النيابة عن ولايته

في واشنطن ، لأنه كان واثقاً بأن صدى دعوتـــه سيكون أقوى وأفعل اذا ارتفع صوته بها من العاصمة الاميركية .

وقد ارتفع صوته حراً ندياً يُسمع الامة الاميركية صيحة الحق اثناء المعركتين الانتخابيتين اللتين خاضتهما البلاد في سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٤ من أجل رئاسة الجمهورية ، اذ تطوع خلالهما للدعوة الى انتخاب « كلي » زعيم حزب الهوغ الذي كان يضع تحرير العبيد في برنامجه . فلم يوفق الى بغيته . ولكن محاولته هذه اكسبتــه شعبية واسعة لدى انصار فكرة التحرير ، وبدأ الجميع يعدونه من اكبر دعاة هذه الفكرة ، وأشدهم حماسة في الدفاع عنها والنضال من أجل تحقيقها .

وكان لنـــكولن اثناء اقامته في واشنطون بعد انتخـــابه للكونغرس ، يرى رأي العين كيف تمارس تجارة الرقيق في العاصمة الاميركية وفي ظل الكابيتول مقر المجلس التشريعي نفسه . وقد شاهد العبيد يعيشون ، في انتظار بيعهم ، في الزرائب والاسطبلات كالبهائم او أقل شأناً . فحاول حمل ولاية كولومبيا التي تقـــع العاصمة فيها ، على الغاء الرق في أراضيها وشراء العبيد الذين فيها وإعتاقهم وتعليمهم حرفة تساعدهم على كسب معيشتهم بشرف . وقد احرز اقتراحه بهذا الصدد أصواتاً عديدة في مجلس الولاية ، لكن المقاومة العنيفة التي قابله بها الجنوبيون وانصارهم أدت الى اهماله ورفضه .

وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٤٧ ، استجوب لنكولن رئيس الجمهورية مباشرة اثناء انعقاد جلسة الكونغرس ،

عن حرب المكسيك التي لم تكن سوى وسيلة لأرضاء مطالب الجنوبيين وزيادة عدد الولايات التي يباح الاسترقاق فيها. وكان استجوابه قوياً عنيفاً قال فيه : « لئن فاز الحق في تحرير الاميركيين من الظلم الانكليزي فقد بقي ان يتحرر السود ايضاً من ظلمنا نحن معاشر البيض » . ثم قال مخاطباً رئيس الجمهورية : « ليذكر الرئيس انه يجلس حيث كان يجلس واشنطن ؛ وليجب اذا ذكر مثلما كان يجيب واشنطن ، وكما انه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق . والله لا يسمح ان يهرب من الحق ، كذلك ليتجنب الرئيس الهرب والمراوغة . فاذا استطاع بعد ذلك ، ان يقيم الدليل على ان الارض التي سالت عليها الدماء أول ما سالت هي ارضنا ، فاني موافقه في ما يسوق من مبررات . ولكنه ان عجز عن ذلك أو أحجم عنه ، فاني حينئذ خليق أن آخذ على اليقين ما يقوم في نفسي فعلاً مما هو اكثر من الظن ، فأرى انه يشعر بخطأه وانه يشعر بان الدم الذي سال في تلك الحرب هو كدم قابيل يستصرخ السماء ضده » .

ولكن الاوساط السياسية كانت تؤيد تلك الحرب ، لانها ترمي الى إلحاق ارض جديدة بالولايات الاميركية ، دون التفات الى ان هذا الالحاق يجري بالقوة . فأثار استجوابه ، رغم قوة منطقه في عرض التهمة التي يوجهها الى الحكومة بالصاقه بها جريمة الاعتداء ، حنق رئيس الجمهورية والوزراء على هذا النائب المغمور ، المجهول لامس : الذي كان بعض زملائه يسمونه ابن الغابات نيلاً منه ، واستنكر النواب هذا الاستجواب ، وشجبه حتى أعداء

الاسترقاق منهم .

ولم يقف الاثر الذي تركه ذلك الاستجواب الجريء ، عند هذا الحد بل أدى الى إخفاق لنكولن في الانتخابات التالية لمقعد النيابة في الكونغرس. فدعته احدى الجمعيات المكافحة للاسترقاق ، إلى القيام برحلة يطوف خلالها الولايات الامريكية الشمالية داعياً الى مبادئه ، وقد اكسبته هذه الرحلة عــدداً كبيراً من الانصار والمؤيدين .

وقد أطلق غياب لنكولن عن الكونغرس الحرية لانصار الرق ، وفي طليعتهم دوغلاس منافسه في تمثيل ولاية ايلنويز في مجلس واشنطن . فاقر هــذا المجلس سنة ١٨٥٤ قانوناً بدخول ولايتي كانساس ونبراسكا الى الاتحاد الامريكي بالصفة التي تريدانها فيما يتعلق باتباع مبدأ الاسترقاق او العدول عنه . ولما كانت هاتان الولايتان تقعان شمالي الخط المثبت في اتفاق مازوري ، وهو نهاية منطقة السماح بالاسترقاق ، فقد جعل القانون الجديد ذلك الاتفاق لغواً ، مما أثار اعــداء الاسترقاق فهاجموه في الصحف ، وفي الاجتماعات الشعبية ، وعلى منابر الكنائس ، لانهم وجدوا فيــه برهاناً ثابتاً على ان الحكومة قد اعتزمت حماية الجنوب وتوسيع انتصاراته وخنق الاحتجاجات الساخطة في الشمال ، وايقنوا بأن الحالة اذا استمرت على هذا الغرار ، فلن تنقضي سنوات معدودة حتى تصبح القارة الامريكية جحيماً للعبيد .

وكان لنكولن في طليعة المعارضين لموقف الحكومة والمندين بسياستها والحاملين عليها حملة شعواء ، ومما قاله في صدد قرارها :

« ان هذا القرار يعلن الحياد ولكنه يضمر حماسة حقيقية لانتشار الاسترقاق ، وهي حماسة امقتها لما تنطوي عليه العبودية في ذاتها من جور قبيح ، وأمقتها لانها تشوّه نظامنا الجمهوري الذي نسوقه للعالم مثالاً ، وامقتها على الاخص لانها تدفع كثيراً من رجالنا الاخيار الى حرب صريحة ضد المبادىء الاساسية للحرية المدنية ، فهم يوجهـون انتقادهم الى اعلان الاستقلال ، ويصرون على اعتقادهم بانه ليس من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا ، وانه ليس ثمة الا المصلحة الشخصية » .

والتف حول لنكولن عدد كبير من اعضاء حزب الهوغ الذين استنكروا امتـداد الاسترقاق الى الغرب ، ومن اعضاء الحزب الديموقراطي الذين لم يرقهم تسلط كبار المزارعين على حزبهم ، واجتمع فريق من ممثليهم في شباط (فبراير) سنة ١٨٥٤ وأسسوا حزباً جديداً دعوه الحزب الجمهوري ، وانتخبوا ابراهيم لنكولن رئيساً له فألقى خطاباً حدد فيه خطة حزبه فلم يُبـدِ ميلاً الى التدخل في أمر الاسترقاق في المناطق التي تقره لمـا في ذلك من صعوبة في إلغائه ، ولكنه هاجم الكونغرس لنقضه اتفاق مازوري قائلاً ان التشريع بشأن الاسترقاق يجب ان يتفق مع آراء مؤسسي الدولة الاميركية الذين رأوا تحديد مـداه ورجوا زواله في المستقبل . وانتقد الرأي الذي يزعم ان امر الاسترقاق هو من أمور الولايات الخاصة التي تستطيع كل منها ان تستقل بتقريرها بمفردها حسب رغبتها ، منوهاً بان مسألة الرق لا تهم الولايات التي تقره فحسب بل تشمل جميع الولايات على السواء ، فهي مسألة

قومية عامة . واشار الى ان هذه المسألة لن تحـل الا متى انتهت الى أزمة تجتازها الامة بارادتها ، وهي إرادة خليقة إن هي اوقظت بان تجتاح الصعاب .

والحق ان فساد الرأي القـائل بترك أمر الرق لكل ولاية تقرره بمفردها وحسب مشيئتها ، ما لبث ان تجلى بشكل صارخ ، حين شرع محبـذو الاسترقاق ومعارضوه يتزاحمون جميعاً على استيطان كانساس ، وكل من الفريقين يريد التفوق بعدده على الآخر ، حتى اذا ما حان وقت تقرير أمر الاسترقاق كانت له الغلبة على خصمه ، وقد تألفت في الشمال والجنوب جمعيـات لمساعدة النازحين الى تلك الولاية وتزويدهم بالسلاح . ولما بدأت المعركة الانتخابية لاختيار ممثل الولاية في الكونغرس ، اجتاز الكثيرون من اهالي مازوري حدود كانساس فساعدوا بأصواتهم على فوز المرشح الذي يؤيد الاسترقاق ثم عادوا الى ولايتهم ، مما أثـار البـلاد وأدى الى نشوب حرب عصابات مستمرة على تخوم الولايات المختلفة .

وفي مطلع سنة ١٨٥٧ عرضت على المحكمة الاميركية العليا ، قضية عبد اخذه سيده من احدى الولايات التي تبيح الاسترقاق الى ولاية تحظره . فلما رجع به الى الولاية الاولى تقدم العبد من المحكمة طالباً عتقه بحجة انه كان يقيم في ولاية لا عبودية فيها . فاذا بالمحكمة توسع افق هذه القضية ، فتبحث مسألة الاسترقاق بوجه عـام ، وتقضي بان الكونغرس لا يحق له منـع امتداد الاسترقاق الى الولايات الغربية ، وبان اتفاق مازوري باطل من أساسه . فثار

ثائر الولايات الشمالية ، وانتقدت صحفها ذلك القرار انتقاداً شديداً ، قائلة إنه يجعل اميركا ارض العبودية ، وقالت احداها : « علم بلادنا قد اصبح علم الاسترقاق ، فعلينا ان ننزع تلك النجوم المتلألئة منه ، ونصبغه بالسواد ، ونجعل شعاره السوط والقيد» .

وشرع لنكولن يرثي « اعلان الاستقلال » وما آل اليه في ظل الاوضاع الحاضرة . ومما جاء في خطبه يومذاك هذا المقطع الرائع : « في تلك الايام كان «اعلان الاستقلال» امراً مقدساً في نظر الجميع يمجدونه دون استثناء وينتظمهم دون استثناء ايضاً . اما اليوم فقد هوجم وسخر منه وأوّل وفق الاهواء ، ومزق شرّ ممزق ، حتى ان واضعيه لو بعثوا من مراقدهم لما أمكنهم ان يعرفوه ، وذلك بما فعلنا اذ حاولنا جعل عبودية الزنجي أمراً عاماً ابدياً . ان جميع قوى الارض لتظهر وكأنها تتحد عليه ، فـالمال في اعقابه ، ومن ورائه الطمع ، ثم من وراء هذا الفلسفة ، تتلوها جميعاً نظريات العصر التي تتكاتف جميعاً في سرعة لتؤيد الصيحة ضده . لقد ألقوا به في سجنه بعد ان فتشوه ولم يدعوا في يده اية آلة ينقب بها الجدار ، واغلقوا عليه أبواباً صفيقة من الحديد ، والان يذرونه في سجنه وعلى بابه قفل ذو مائة مفتاح ، لا يمكن فتحه الا ان تتفق على ذلك جميع هاتيك المفاتيح . وانها لفي أيدي مائة من الرجال مختلفين مبعثرين في مائة مكان مختلفة سحيقة . وانهم ليفكرون فوق ذلك ليتبينوا أيّ اختراع في كافة نواحي العقل والمادة يمكن ان يضاف الى ذلك ، لتكون استحالة هربه اكثر توكيداً مما هي عليه » .

وفي تلك الاثناء انتهت مدة نيابة دوغلاس منافس لنكولن ، فرشح كل منهم نفسه لمجلس الشيوخ ، واتجهت الانظار جميعاً الى هذين الرجلين اللذين يجسد كل منهما مبدأ يناقض الآخر ، ممثلاً احدهما الجنوب بمطامعه الخسيسة ، وثانيهما الشمال بثورته الكريمة. ونظم المرشحان في خريف سنة ١٨٥٨ سلسلة من الاجتماعات العامة المشتركة يتناظران فيها مدافعاً كل منهما عن رأيه . وعقدت هذه المناظرات في سبع مدن من ولاية ايلينويز ، فكان الاقبال عليها عظيماً ، وكان الجمهور يتابع باهتمام كل ما يقوله المناظر في الرد على خصمه .

وقد عمد دوغلاس الى كل ما يملك من اسباب الترف فاستخدمها للتأثير في جمهور الناخبين . كان يصل الى المدن التي تعقد فيها الاجتماعات على مركبة فخمة مطهمة ، او على قطار خاص ، تحف به حاشية كبيرة احاطت نفسها بمظاهر الفخامة والابهة ، وفي مقدمة القطار مدفع يعلن وصول المرشح الخطير بثلاثين طلقة متوالية . اما لنكولن فكان يصل الى مكان الاجتماع ، على حصان هزيل ، أشعث ، أغبر ، مجهداً من التعب .

وكان دوغلاس ، على خلاف لنكولن ، جميل الوجه ، مشرق الطلعة انيق الهندام ، يسمى المارد الصغير لقصره ودهائه ، فكان اذا ما اخفق في مناظرته وتبين له عجزه فيها ، اهمل المبدأ السياسي الذي تدور المناقشة حوله . كي يهاجم شخص لنكولن ، منددًا بضعة اصله ، معدداً المهن التي مارسها ، معرّضاً بقبحه وفقره وقيافته الزرية وزيه المهمل . ولكن لنكولن كان يستقبل هذا

الوابل من السباب بظرفه وسخره وبديهته المعجزة . ولم يسمح لنفسه لحظة واحدة بان يقابل خصمه بالمثل ، بل كان يتناسى شتائمه ويحرص على مقارعته بالحجة القوية الداحضة ، مصدقاً لما قاله في الفيلسوف الاميركي امرسون : « ان قلب لنكولن كان كبيراً كالدنيا ، لكنه لم يكن ليتسع لذكرى مهينة واحدة » . ولعله خير ما يدل على السمة الفارقة بين هذين الرجلين ، قول لنكولن في دوغلاس : « لقد سوّته الطبيعة بحيث ان ضربة السوط اذا نزلت على ظهره هو تؤلمه وتؤذيه ، ولكنها لا تؤلمه ولا تؤذيه اذا هي نزلت على ظهر ايّ شخص آخر ! » فان في هذا القول لمعنى عميقاً يصور قائله مثلما يصور الرجل الذي يتحدث عنه .

وقد جرت على لسان لنكولن في هذه المناظرات الفريدة ، حكم وطنية رائعة ، وامثال ادبية شائقة ، ونوادر غاية في الطرافة والمتعة ، منها قوله : « ان اعتمادنا هو على حب الحرية الذي غرسه الله في قلوبنا ، وحصانتنا هي في المحافظة على الروح التي تقدر الحرية كتراث شرعي لكل البشر في كل مكان ، فاذا قضيتم على هذه الروح زرعتم بذور الاستبداد حول عتبات ابوابكم » ومنها قوله : « انها حرب ابدية بين مبدأين ، اولهما الحق المشترك لكل الناس ، وثانيهما حق الملوك الالهي — او هي الروح التي تقول : اكدح وحصل الخبز وانـا آكله ، ومهما يكن شكلها فانهـا المبدأ الاستبدادي بعينه » . ومنها اخيراً هذه الكلمة الخالدة التي تسخر من انصار الاسترقاق وتطعن مبـدأ استغلال الانسان للانسان في الصميم :

« ان مبدأ الاستعباد ، عندهم ، يظهر لي كما يأتي : ليست العبودية صواباً من جميع الوجوه ، وليست خطأ من جميع الوجوه . وان من الخير لبعض الناس ان يكونوا عبيداً ، وهم يكونون في هذه الحال خاضعين لارادة الله ! حقاً : ما كان لنا ان نعارض مشيئة الله .. ولكن ما تزال هناك صعوبة في تطبيقها على بعض الحالات الخاصة . فمثلاً : لنفرض ان هناك شخصاً اسمه الدكتور روس الموقر ، يملك عبداً اسمه سامبو . فاذا لنتساءل : هل مشيئة الله تقضي بان يظل سامبو عبداً أم ان يُطلق سراحه ؟ ونحن لن نظفر من الله باجابة سريعة على هذا السؤال ، ولن نجد في كتابه الانجيل جواباً لذلك ، او اننا لا نجد في الغالب الا ما هو من شأنه ان يثير الجدل حول معناه . ولا يفكر احد ان يسأل ما رأي سامبو في ذلك . وعلى هذا يترك الأمر في النهاية للدكتور روس ليفصل فيه . وبينما هو يفكر في الامر ، نراه يجلس في الظل ، ويده في قفازه ، يقتات بالخبز الذي يكسبه سامبو تحت الشمس المحرقة . فاذا هو قرر ان مشيئة الله تقضي بان يظل سامبو عبداً ، فانه بذلك يحتفظ بموضعه المريح ، اما اذا قرر ان مشيئة الله هي أن يصير سامبو حراً فان عليه ان يخرج من الظل ، وينزع قفازه ، ويكدح من اجل خبزه . فهل يفصل الدكتور روس في الامر بما تقضي به النزاهة التامة التي لا بد منها في كل فصل حق ؟ » .

على ان تلك المعركة التي اندفع لنكولن عليها فيضاً من قلبه الكريم ، وقبساً من عقله النيّر ، وانفق في سبيلها ثروته الصغيرة كلها ، قد اسفرت عن نجاح منافسه ، واضطراره هو الى العودة

إلى مزاولة المحاماة بجهد مضن حتى ينتشل اسرته من حضيض الحاجة التي صارت اليها . وقد حدث ذلك لان الذين ينتخبون المرشح لمجلس الشيوخ في النهاية، هم اعضاء مجلس الولاية المحلي، وليسوا الناخبين من عامة الشعب . ولم يعوض لنكولن من خسارته المادية ، الا النجاح الادبي الكبير الذي احرزه على منافسه وأكسبه لقب « قاتل المارد » ، والا البذور التي زرعها في القلوب وقد بدأت تنمو وتنضج وآن وقت حصادها .

زئير العاصفة

●

في سنة ١٨٥٩ هزت اميركا والعالم كله ، حادثة دامية كان بطلها رجل يدعى جان براون نشأ نشأة دينية ، وعاش في ظل الفاقة ، فشاهد ما يعانيه العبيد من جور ومـــا ينغمسون فيه من بؤس . وقد حضر في ربيع تلك السنة ، مؤتمراً لمقاومةالاسترقاق خرج منه ناقماً مردداً : « ان هؤلاء الناس يتكلمون كثيراًمع ان الحاجة تستلزم العمل ! » ثم مضى فألف جماعة من الانصار ، وانقض بها في شهر تشرين الاول (اكتوبر)على مدينة هاربرز فاري في فرجينيا ، فاستولى على مستودع الاسلحة فيها ،واعلن تحرير العبيد في تلك المنطقة . ولكن العبيد الذين كانوا يعلمون مدى القوة التي ينبغي توافرها لتحريرهممن النيرالذي يفدحهم ، لم يجرأوا على الالتحاق بهذه الجماعة الصغيرة ، فقبض على جان براون ، وحكم عليه بالموت .

وقد اثار هذا الحكم غضب الاحرار في جميع انحـــاء العالم المتمدن ، وارسل فيكتور هيغو من منفاه بجزيرة المانش رسالة ملتهبة الى حكومة الولايات المتحدة ، يناشدها فيها اطلاق سراح ذلك الرجل الكريم «المشبع بروح الانجيل،وروح محررناالمسيح ،

الذي ارسل صرخة الانعتاق الى اخوته في الانسانية » ، وختمها بقوله : « أجل ، فلتعلم اميركا . ان هناك ماهو اعظم شناعة من قتل قايين لهابيل ، هو قتل واشنطون لسبارتاكوس ... »

ولكن هذا الاحتجاج الناري ، وامثاله ، لم تستطع ان تعدل بحكومة الولايات المتحدة عن حكمها الغاشم ، فأعدم جان براون شنقاً في ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٥٩ ، في اليوم التالي لعيد ميلاد المسيح .. !

وكان وهو يسير الى المشنقة مثالاً للبسالة والجرأة ، وقال لجلاديه : « انكم تقدمون ايها الاصدقاء على جرم عظيم في حق الله وحق الانسانية . انكم تستطيعون التخلص مني بسهولة ، بل لقد تخلصتم مني الآن تقريباً ... ولكن هذه المسألة لم تنته بعد .. اعني مسألة العبيد !. »

وكان هناك ضابط يشرف على تنفيذ الحكم ، فلما لفظ جون براون انفاسه الاخيرة ، التفت الضابط الى الجمهور وقال : « هكذا يهلك اعداء الجنس البشري ! » ولكن احداً لم يصدق قوله غير اولئك الذين كانوا يخافون ان يفقدوا عبيدهم ..

وقد ألهمت هذه الفاجعة احد كبار الرسامين ، لوحة رائعة تعرض اليوم في متحف فيكتور هيغو بباريس ، صور فيها طيفاً مؤثراً ورهيباً للسيد المسيح ، يشير الى شبح الموت وهو يحتضن فريسته جان براون ، وكتب تحتها هذه الجملة الصارخة : « كالمسيح ، من أجل المسيح ! » .

وقد ترك استشهاد براون صداه الحافز في قلوب انصار الفكرة

السامية التي مات في سبيلها ، وبينما رأى اهل الجنوب في هـذا الرجل فوضوياً متعصباً سفاحاً سعى الى اثارة العبيد ، عده اهل الشمال — حتى الذين انكروا عليه عمله — مجاهداً مات في سبيل عقيدته ميتة الابطال ، ووضع احدهم نشيداً له كان الاحرار ينشدونه بحماسة ، وقد جاء في مطلعه :

« جسم جون براون متعفن في قبره
« اما روحه فلا تزال حية
« وكواكب السماء تنظر برفق
« الى قبر براون العجوز » .

وتهافتت بعد مصرع براون الدعوات على لنكولن من جميع الولايات الاميركية ليزورها ويخطب فيها ، فكان يفجّر الدموع الحارة في صدور سامعيه ، ويضرم نار الاستنكار في قلوبهم ، قائلاً ان تلك القوافل من العبيد ، اولئك البشر الذين يعاملون معاملة البهائم ، خليقون متى تحرروا وتعلموا ان يصبحوا اناساً كالآخرين ، ومواطنين يضاعفون من ثروة البلاد ويزيدون في مجدها ، متجهاً ببراعته العظمى في الخطابة ، الى عاطفة الجمهور تارة ، والى عقله تارة اخرى ، والى مصلحته حيناً والى وطنيته حيناً آخر .

وفي شباط (فبراير) سنة ١٨٦٠ دعته جمعية كبرى من انصار التحرير في نيويورك الى القاء محاضرة فيها ، فقبل الدعوة متردداً لتهيبه الحديث للمرة الاولى في تلك المدينة العظيمة وذلك الحفل الكبير . وبينما كان يتنزه في نيويورك منفرداً غداة يوم المحاضرة ،

تناهى الى اذنيه لحن رقيق صادر من مدرسة للأطفال ، لعله أحد الالحان التي ناغته بها أمه في الغابة التي ولد تحت ظلالها ، او أحد الاناشيد التي كانت آنا روتليدج ترتلها بصوتها الندي العذب في كنيسة نيو سالم .. فاذا بذلك الصديق الكبير من اصدقاء الاطفال ، يدخل المدرسة ويقف بين التلامذة مصغياً اليهم بحنو عظيم . ويلاحظ المعلم هذا الرجل الغريب ، بسمائه المغرقة في الكآبة ولكن المفرطة في الطيبة ، فيدعوه الى التحدث للاطفال ، فيقص عليهم طرفاً من اقاصيصه الممتعة ، ثم يهم بالانصراف ، فيستوقفه المعلم ويسأله عن اسمه ، فيقدم نفسه بهذه الكلمات المتواضعة : « ابراهيم لنكولن من ولاية ايلينويز » .

ولكن ما هي الا ساعات قليلة بعد ذلك ، حتى يقف ليلقي محاضرته امام نخبة من رجال نيويورك ، فاذا برئيس الجمعية يقدمه الى الجمهور المتراحم لسماعه بقوله « إنه لشرف عظيم لي ايها السادة ان اقدم اليكم رئيس الولايات المتحدة المقبل ، السيد ابراهيم لنكولن » .

وكان لنكولن في ذلك الاجتماع التاريخي ، شبيهاً بابناء الطبقة العاملة التي كان يحرص دائما على ان يسلك في زمرتها . ولم يكن فيه شيء يثير الانتباه ، للوهلة الاولى ، سوى قامته المفرطة في الطول . وكانت ثيابه متهدلة حول جسمه العملاق ، ووجهه شاحباً شحوباً عظيما ، وفي اصابعه آثار العمل اليدوي الشاق ، وكانت عيناه الغائرتان كئيبتين قلقتين ، وهو لا يوحي في الجملة أية فكرة عن الذكاء العجيب الذي رفعه من الحضيض الى اعلى مقام بين

مواطنيه . وحينما تحدث مع بعض اصحابه قبل ان يأزف موعد المحاضرة ، كان يبدو قلقاً ، مضطرباً ، تساوره تلك الخشية التي تساور فتى يجد نفسه لاول مرة في مجتمع جديد يخاف انتقاده . ولكنه لما تكلم بدأ يتحول ، فالتمعت عيناه ، وارتفع صوته شيئاً فشيئاً ، واخذ وجهه يشرق حتى بدا كأنه يضيء الجمع بأسره ، وظل ساعة وبعض الساعة مستحوذا على سامعيه .

وقد فوجيء الناس بترشيح ابراهيم لنكولن لرئاسة الجمهورية ، بل لقد فوجيء هو نفسه بذلك .

وكان اول ما قاله لاعضاء الحزب الجمهوري حين ابلغوه عزمهم على ترشيحه لمنصب الرئاسة : « هل تعرفون ما بي من نقائص كثيرة لا تؤهلني لهذا المنصب ؟» فقالوا : «ان نقائصك المزعومة قد قبلت على كل وجوهها . » : فقال : « اني امرؤ ينقصه ما يصح ان نسميه « المحاسن الشخصية » وهي صفات لا تسقطها واشنطون من حسابها ! » فقالوا : « لقد تكلمنا في هذا الامر ايضاً ، ورأينا اننا في وقت من الدقة والخطر بحيث يجب الا نقيم وزناً لتلك المحاسن او نرجحها على صفاتك ومميزاتك الاخرى» . ثم صارحوه بقولهم : «ربما كان في وسعنا ان ننتخب رجلاً اوجه ، ولكننا نشك في اننا كنا نستطيع ان نختار رجلاً افضل ! »

وما لبث الحزب الجمهوري ان عقد في شهر ايار (مايو) من تلك السنة اجتماعاً بمدينة شيكاغو ، واعلن في جو من الحماسة واتحاد الكلمة ، ترشيح لنكولن للرئاسة على ان يكون مبدأه : « ليس للكونغرس او لاي مجلس تشريعي في الولايات ، منح الاسترقاق

صفة قانونية في اية ولاية اميركية» ، وان يضع حداً لتجارة الرقيق ، ويُدخل كانساس في الاتحاد الاميركي ؛ بصفتها ولاية حرة ، ويتخذ التدابير لاصلاح الحالة الداخلية وحماية الصناعة الوطنية .

وكانت هذه الخطة تناقض مناقضة تامة ، اتفاق زعماء الجنوب من قادة الحزب الديموقراطي ، على ان يكون لكل من الولايات الاميركية سيادة مستقلة وحقوق مصونة ، وان يقوم الكونغرس بحماية الاسترقاق في الولايات الغربية ، وإجماعهم على انه « ليس للكونغرس او لاي مجلس تشريعي في الولايات ، سلطة تخوّله الغاء حق اي اميركي بان يستصحب ما يملك من رقيق لاستيطان احدى المقاطعات قبل ان تنضم الى الاتحاد الاميركي وتصبح ولاية من ولاياته » . وعلى هذه الاسس رشح الديمقراطيون للرئاسة دوغلاس منافس لنكولن .

وشهدت تلك السنة نضالاً سياسياً عنيفاً مسرفاً في العنف ، شعر لنكولن في غمرته بان الارادة الشعبية التي ايقظها بدأت تحمله على موجتها العارمة . فقد كانت الجماهير تحتشد وتتظاهر في كل مكان ، لتدعو له وتهتف باسمه . وكان الخطباء ممن يعرفونه اولا يعرفونه ، يخطبون الناسَ عنه في الشوارع ، مبرهنين على عظيم ولائه للشعب بكونه هو نفسه ابن الشعب ، نشأ في الغابة وقضى فيها شطراً من حياته يكدح ويشقى ، فأضاف مريدوه الى ألقابه لقباً جديداً هو « ايب فالق الاشجار » .

وبقدر ما كانت الطبقات الوسطى والجماهير الشعبية تحبه وتجد فيه صدى آمالها ، كان الاقطاعيون والنخاسون وانصارهم من رجال

الفكر والدين ، وجلهم من اهل الجنوب ، يحقدون عليه ويحاولون تحطيمه بكل وسيلة ، ويهددون بالانفصال عن الاتحاد الاميركي إن هو ظفر بالرئاسة . فكان يقول : « كثيرون من الناس في هذه البلاد يرغبون في الغاء الرق ، وكثيرون لا يرغبون . لا اتعرّض الآن لمساويء الرق ولا لحسناته ، ولكن كل انسان ، سواء اكان يرغب في منعه او لا يرغب ، يعلم ان الغاءه قد يتم . فلماذا تريد الولايات الجنوبية ان تنشق ؟ لأنها تعلم ان الغاء الرق قد يتم ، وهي تريد ان تجتنب ذلك . بل انها تطلب اكثر من هذا : تطلب ان تنشر الرق . اننا ملومون جميعاً ، فأما نحن فمستعدون لان نصلح خطأنا . واما انتم فانكم لا تريدون » .

وقد اخبره صديق له انه ليس بين الثلاثة والعشرين كاهناً في سبرنغفيلد ، إلا ثلاثة كهان يريدون انتصاره ، فقال وهو يشير الى الانجيل : « كيف يستطيع المسيحيون ، وبين ايديهم هذا الكتاب ، ان يبرروا الرق ؟ وكيف يسعهم الاقتراع له ؟ ان هذا لشيء يتعذر عليّ فهمه ! اني أؤمن بالله ، وأؤمن بان الله يكره الظلم والاستعباد . واني لأرى العاصفة تقترب ، واعتقد بان يد الله هي التي هيأتها ، فاذا كان لي في هذه العاصفة مكان ، وذلك هو اعتقادي ، فانا مستعد للقيام بواجبي فيها . انا لست شيئاً ولكن الحق كل شيء . هذا ما علمنا اياه المسيح ! ان دوغلاس لا يريد ان يلغي الرق ، ولكن الله يريد ذلك ، والانسانية تؤيده ، وانا أريده ايضاً . ولسوف يساعدني الله على تأدية مهمتي » .

وفي ليلة السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٠

اسفرت المعركة الانتخابية عن نجاح ابراهيم لنكولن برئاسة الولايات الاميركية المتحدة ، رغم مقاطعة الجنوب له مقاطعة تامة . فلما اعلنت هذه النتيجة التي دلت على تعاظم قوى الحرية في العــالم الجديد ، لم تكتم الولايات الجنوبية استنكارها ، وصرخ قادتهـا بصوت واحد : « لا نريد ان يحكمنا هذا الرجل ! » فكأن ذلك الخطاب كان مدعواً دون غيره ليهوي بفأسه على النظــام العتيق فيستأصله من جذوره .

الحرب الاهلية

●

تجمعت النُذُر حول ابراهيم لنكولن قبل ان يتسلم مهام منصبه الخطير. فقد كان من تقاليد البيت الابيض، مقر رئاسة الجمهورية، ان لا يدخله رئيس جديد الا في شهر آذار (مارس). وفي انتظار هذا التاريخ وقعت أحداث جسام روّعت البلاد وهزّتها هزاً عنيفاً.

لقد انفصلت ولاية كارولينا الجنوبية عن الاتحاد الامير كي في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٦٠، وارسلت الى جاراتها نداء تدعوها فيه الى اقتفاء أثرها، فلبت دعوتها في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦١ كل من ولايات مسيسبي وفلوريدا والاباما وجورجيا ولويزيانا، ثم انفصلت في شهر شباط (فبراير) ولاية تكساس. وطفق قادة هذه الولايات يعددون للشعب ما يزعمونه من مساويء الاتحاد الذي يهدد بتغلب صناعة الشمال على مصالحهم الزراعيــة. وفي ٤ شباط سنة ١٨٦١ اجتمع في مونتغمري من أعمال الاباما مندوبون عن الولايات السبع واتفقوا على تشكيل «الولايات الاميركيــة الائتلافية» وانتخبوا جفرسن دايفس رئيساً موقتاً لها.

وراع الشمال انفصال الولايات الجنوبية عن الاتحاد ، واختلفت وجهات الناس في النظر اليه ، فذهب فريق الى أن هذا الانفصال ينقذ الشمال نهائياً من « النظام الشيطاني » كما كانوا يسمون الاسترقاق ، ويريحه من المشاكل المستعصية التي نشأت بسببه بينه وبين الجنوب. وقال فريق آخر ان اتحاد الولايات الاميركية أمر مقدس ، فيجب حمل الولايات المنفصلة على الرجوع اليه وارغامها على انتهاج الطريق القويم فيما يتعلق بمسألة الرق . ولم يحبذ الرأسماليون الذين تربطهم بالجنوب علاقات تجارية الالتجاء الى العنف لارجاع الجنوب الى حظيرة الاتحاد ، وأشاروا بالسعي لتحقيق ذلك بالاناه والحلم. واقترح الكونغرس حلا وسطاً يقوم على ابقاء الرق في الولايات التي كانت تقره ، والسماح بتجارة الرقيق في داخل البلاد كلها ، وإنشاء خط يفصل بين الولايات التي ألغت الرق والولايات التي أبقت عليه كالخط الذي وضع قديماً في اتفاق مازوري ، ولكن واحداً من هذه الحلول لم يلاق تأييداً تاماً من جماهير الشعب ، وظلت عواصف القلق والحذر والتوتر تعصف بالبلاد ، حتى تجلى للجميع انه لا بد من الاحتكام الى السلاح.

وفي الواقع انه لم يكن هنالك بد من تحكيم السلاح بين الفريقين ، لان مصالحهما الاقتصادية كانت قد وصلت الى حد من التناقض جعل من المستحيل تسوية الخلاف بالمساومة والمصالحة او دوام الحال على ما هي عليه . فالولايات الشمالية ، وهي اقاليم صناعية لا تتأثر بما تتأثر به الاقاليم الزراعية ، كانت تريد تسيير الدولة وفق ما تقتضيه مصالحها ، وقد استطاعت ان تفرض الرسوم الجمركية

الباهظة على بعض الواردات صيانة لصناعتها الوطنية ، ولم تكن هذه الرسوم مما يلائم مناطق الجنوب التي لا صناع فيها . وكان القطن والقصب اهم محاصيل الجنوب ، وتصديرهما عماد ثروته ، ولكن الصناعة الشمالية في حاجة اليهما ، وهي تريدهمـــا باسعار رخيصة وتأبى ان تنافسها الصناعة الاجنبيـــة عليهما ، ففرضت الدولة على تصديرهما ضريبة فادحة شلت حركته ، وجعلته قليل الربح عديم الفائدة . وتأتي أخيراً مسألة العبيد التي كانت تحمل في تضاعيفها جميع المسائل الاخرى ، فالاسترقاق ضرورة ملحة للنظام الاقطاعي العبودي ، وهو عائق كبير في النظام الرأسمالي يؤخر تطوره ويحول دون ازدهاره. يضاف الى هذا كله ، الافكار والمبادىء التي تلبست بها هذه الامور جميعـــاً فأيقظت الجماهير الغفيرة وجندتها في سبيلها .

وهكذا يتبين ان الحرب الاهلية في اميركا ، انما كانت ، كما يقول المؤرخان تشارلس وماري بيرد ، ثورة اجتماعية أخـــذت اسبابها تتبلور منذ زمن بعيد ، حتى بلغ نموها مرحلة النهـــاية فانبعثت في شكلها المعروف ، ولو ان المزارع الكبيرة بأنظمتها الاقتصادية والاجتماعية لم تكن منحصرة في الجنوب ، بل متفرقة في انحاء البلاد لأصبح النزاع قائماً في كل ولاية ، بين المصالح الزراعيـــة الارستقراطية وبين المصالح الصناعية والتجـــارية ، ولنشبت الحرب بين الطبقتين الاقطاعية والرأسمالية مباشرة بدلاً من ان تقوم بين منطقتين كبيرتين من البلاد .

*

تولى ابراهيم لنكولن رئاسة الولايات الاميركية في ٤ آذار (مارس) سنة ١٨٦١ وهو في سن الثانية والخمسين ، وكل ما يحيط به يوحي باخفاقه في المهمة التي انتدبته لها امته ، الا التأييد الشعبي الذي كان يلهمه الثقة بنفسه ، ويحثه على المضي في طريقه القاصد الى النهاية . فالرئاسة بحد ذاتها لم تكن عنده غاية يستريح اليها ، بل كانت مبدأ مرحلة جديدة في الجهاد ، وانه ليحس احساساً داخلياً انه هالك في هذا الجهاد ، فلا يثنيه هذا الاحساس عن متابعته ولا يزيده الا إقداماً .

وأقسم الرئيس الجديد، ويده على الانجيل، يميناً بالمحافظة على الدستور . وقال ان هذا القسم يلزمه القيام بواجبه في ان يكون قانون الولايات المتحدة نافذاً في جميع الولايات . ثم قال ان الوحدة الاميركية لا تحل ، وكل عمل يرمي الى فصم عراها باطل ، وان حكومته عازمة على الدفاع عن هذه الوحدة ولو اضطرت الى استخدام القوة في سبيلها . وختم كلامه بقوله : « اني واثق بانكم لن تحملوا كلامي على محمل التهديد ، بل انها كلمة الاتحاد يعلن انه سيحمي بناءه ، ويدعمه الى اساس من الدستور ، وهو إذ ذاك لا يرى ثمة حاجة الى سفك الدماء والعنف ، ولن يكون شيء من هذا الا اذا أجبرت السلطة القومية عليه » .

وقد تردد لنكولن قليلا في الاسراع بمكافحة الرق ، او اعلان الحرب على الولايات المنفصلة عن الاتحاد لردها اليه ، لما كان من اضطراب النفوس وحيرتها ، ولعدم تيقنه من مقاصد اشياعه ، لا سيما وان فريقاً من التجار كانوا يستنكرون الحرب جهرة

لعلاقاتهم التجارية مع الجنوب ، ويعملون على ابعادها ما وسعهم ذلك ، وقد بلغ من تأثيرهم في جهاز الدولة ان وزراء لنكولن قد مهدوا لوضعه في هذا الموضع الحرج قبل وصوله الى واشنطن . فوزع وزير البحرية الاسطول الاميركي في أنحاء الدنيا ، وحل وزير الحربية الجيش ومّون الجنوب باسلحة الشمال ، وأفرغ وزير المالية صندوق الدولة بانفاق محتوياته على مشاريع شتى .

ولبثت البلاد تنتظر !

كان الجميع ينتظرون حادثة فاصلة تصدر عن احدى الفئتين فتعبر بها عن موقفها تعبيراً جازماً يخرج البلاد من ظلمة الشك الى وضح اليقين .

ولم يطل انتظار الناس كثيراً ، فقد جاءت الحادثة التي ينتظرونها ، ومن حسن الحظ انها صدرت عن الجنوب ، وانها كانت حادثة اعتداء . ففي ليلة الثالث عشر من نيسان (ابريل) اطلقت القوات الائتلافية النار على فورت سومتر ، وهي قلعة في ميناء تشارلستون كانت قد اعتصمت فيها حامية اتحادية قرر لنكولن تزويدها بالمؤن ، فتخوفت الحكومة الائتلافية من ذلك ، وامطرت القلعة بوابل من نيرانها ، فاضطرت حاميتها الصغيرة الى الاستسلام ، وانزل عنها العلم الاتحادي المرصع بالنجوم ، لتحل محله راية تتوسطها شجرة نخيل هي راية الجنوب الخارج على الاتحاد . فأثار الامة هذا النبأ ، ومحا الخطر الذي يهدد وطنها وحريتها الخلافات التي كانت تحول دون اتحاد كلمتها على رأي حاسم ، فاتجهت باجمعها شطر لنكولن ، لانها وجدت فيه المنارة المرشدة في ظلمة تلك

الخطوب والارادة الحازمة الملهمة بالاقدام والحكمة .

وفي صبيحة اليوم التالي لاستسلام حامية حصن سومتر، اذاع لنكولن على حكام الولايات الموالية بياناً دعاهم فيه الى حشد ٧٥٠٠٠ متطوع لمقابلة الاعتداء بمثله . وقال : « اني أؤمن بأن الفكرة الاساسية لهذا النزاع ، انما نشأت من حاجتنا الى البرهان بأن الحكومة الشعبية ليست باطلة او مستحيلة البقاء ، وبأن علينا ان نبتّ في هذا الامر الهام : هل يحق لاقلية ما في دولة حرة ، ان تهدم اركان هذه الدولة كلما بدا لها ذلك ؟! » . فلم ينقض اسبوع واحد حتى تجاوز عدد المتطوعين التسعين الفاً، وبعد شهرين وصل عددهم الى ثلثمائة الف. وتألف في غمرة الحماسة الوطنية جيش كبير أصبح يعدّ قبل نهاية الحرب الاهلية ثلاثة ملايين جندي . ووجد لنكولن نفسه على رأس ذلك الجيش العظيم ، وعلى عاتقه تبعات تدريبه وتموينه وقيادته في ميادين القتال .

وعلى أثر صدور بيان لنكولن ، انفصلت عن الاتحاد الاميركي اربع ولايات جديدة هي فرجينيا وكارولينا الشمالية وتانسي واركنساس ؛ وانضمت الى الائتلاف الجنوبي ، وتحولت عاصمة هذا الائتلاف من مونتغمري الى ريشموند في فرجينيا. فبلغ عدد الولايات المنفصلة احدى عشرة ولاية يقطنها تسعة ملايين نسمة ثلثهم من الزنوج ، تقابلها من الشمال ثلاث وعشرون ولاية اتحادية يسكنها اثنان وعشرون مليون نسمة جلهم من الجنس الابيض .

وكانت معظم القوة الصناعية والتجارة الخارجية والمعارف الفنية والسكك الحديدية في أيدي أهل الشمال . اما الجنوب فكان

غنياً بمنتوجاته الزراعية ، وكان قادته يعتقدون بان صناعة الاتحاد لا تستطيع الاستغناء عن هذه المنتوجات ، وبأن في وسعهم بيع صادراتهم في أسواق انكلترا او فرنسا واستيراد المواد الحربية منها ، فضلاً عن ان استعدادهم الحربي كان يفوق استعداد الشماليين ، وان خبرتهم في فنون القتال قديمة وعندهم قادة بارزون مجربون. يضاف الى هذا كله اعتمادهم على الانشقاق الداخلي في صفوف الاتحاديين ، لميل المزارعين منهم الى مبـدأ الاسترقاق الذي تم الانفصال من أجله ، وكراهية جماعة أخرى لمبدأ الحرب .

عبء العظيم

●

بادرت القوات الائتلافية ، بعد استيلائها على قلعة سومتر ، إلى مواصلة هجومها ، فأعلنت الزحف الى واشنطون للسيطرة على مقاليد الحكم فيها ، ومعروف ان عاصمة الولايات المتحدة تقع في ولاية كولومبيا المحاطة بولاية ماريلاند المعادية للاتحاد . وهكذا وجدت العاصمة نفسها مطوقة بين حدود ولاية متمردة عليها ، وليس لديها حامية تدافع عنها سوى عدد قليل من المتطوعين . فلما ذاع نبأ الزحف عليها ، انتشر فيها الذعر ، واعلنت حالة الحصار ، فنصبت المتاريس في مداخلها وشوارعها وحول مؤسساتها العامة ، واجلي النساء والاطفال الى مكان امين بعيد عنهــا . وارسل لنكولن يستدعي الفرقة الجمهورية الاولى لحماية المدينة . ولبث ينتظر في قلق ، والجمهور المروّع يتطلع الى مشارف العاصمة يخشى ان يهاجمها خصومها قبل ان يقبل المدعوون للدفاع عنها .

ووصلت الفرقة الجمهورية الاولى الى واشنطون اخيراً ، بعد أن تركت في الطريق بعض الضحايا من افرادها في معركة خاضتها في بلطيمور ، اذ تعرضت لها جماعة من الانفصاليين كانوا قد تآمروا مرة على قتل لنكولن فأحبط مؤامرتهم بحيطته وحذره ،

فاذا بهم يحاولون الايقاع بالفرقة التي استنجد بهـــا الرئيس ، فيفاجئونها على غرة ، ويشتبكون معها في معركة قصيرة باءوا فيها بالاخفاق ولكنها اخرت وصول الجنود الاتحاديين الى العاصمة وكبدتهم خسائر كثيرة .

لقد كانت هذه الفرقة أسرع من الجيش الائتلافي في الوصول الى واشنطون ، ولكنها كانت كجميع الفرق الجمهورية فقيرة في السلاح والذخيرة ، وفي الخبرة والتدريب ، وما كادت تستقر في ثكناتها حتى تبين ولاة الامر ان وجودها يهدد الاهلين بالمجاعة لانها بدأت تشاركهم مؤونتهم القليلة ، مما زاد في قلق الناس وضاعف من اضطرابهم . ثم اكتشفت السلطـــة مؤامرة كان يحوكهـــا الانفصاليون في قلب العاصمة لاسقاط الحكومة واحراق المدينة ، فشاعت الفـــوضى في بعض الاوساط الشعبية ، ثم تغلغلت الى الاوساط الرسمية نفسها ، فبدأ الوزراء ينتقدون اعمال لنكولن ، ويوجهون اليه أمرّ اللوم على المأزق الذي جرّ البلاد اليه . ولكن الرّجل الكبير ظل محافظاً على رباطة جأشه ، صامداً في الدفاع عن فكرته . وقد استطاع بوطنيته العظيمة ، وخلقـــه النبيل ، وادارته الحازمة ، وعمله البصير المتواصل ، ان يقوّي في الناس عزيمة الجهاد ، وان يوحي الى اعضاء الحكومة الثقة به والتعاون معه ، كما استطاع ازالة شبح المجاعة بالاستيلاء من الجنوب على بضعة آلاف كيس من الدقيق ، وتجهيز الجيش بشراء المعدات الحربية من اوروبة وبانشاء المصانع الوطنية لانتاجها .

ان اعباء الرجل العظيم تكون دائما على قـــدر عظمته وسمو

نفسه واتساع طموحه ، وكذلك كانت اعباء لنكولن ، خلال اعوام الحرب الخمسة الرهيبة ، كبيرة بقدر المهمة التي اخذ تحقيقها على نفسه . لقد كان يعمل في الليل والنهار لتأدية واجبه الوطني في المرحلة العصيبة التي تمر بها بلاده ، والاضطلاع بالرسالة الانسانية التي انتدبته لتحقيقها . فكان العقل الذي تهتدي به امته في ظلمة الاهوال المطبقة عليها ، والقلب الذي يُفيض الحياة في عروقها . وكان مثله في تحمل التبعات الجسيمة في تلك الحرب الاهلية التي عصفت بالعالم الجديد وانذرت بفنائـــه ، كمثل اطلس بطل الاسطورة القديمة الذي كان يحمل العالم على كتفيه الجبارين .

ولقد اتيح للجنوب ان ينجح امداً غير يسير ، لانه كان كما قلنا اكثر استعداداً وأوفر تجهيزاً واغنى بالقادة المجربين ، فاحرز انتصارات كبيرة اغرقت الاتحاد الاميركي في الالم والذعر لكثرة ما كابد من الخسران . وقد فقد الاتحاد مرة في موقعة واحدة ، دارت على مقربة من واشنطون ، بعد انقضاء ثلاثة شهور عـــلى اعلان الحرب ، اربعة آلاف مقاتل من ابنائه ، وخسر عـــدداً كبيراً من الاسلحة والمعدات . واقترب العدو غير مرة من العاصمة يهددها تهديداً مباشراً ، حتى كانت طلائعه تبدو للناظر من شرفة البيت الابيض ، ولكنه كان يتهيب دائما مهاجمتها ، فتنجو من الخطر باعجوبة .

واتسع مسرح المعارك الحربية كثيراً فكانت تفصل بين جبهة واخرى مسافات شاسعة ، وقد تنقضي احياناً اسابيع بل شهور طويلة بين موقعة واخرى ثم يعود القتال الى عنفه واحتدامه . ولم

تقتصر الحرب على البر بل تعدته الى البحر وامتدت الى المياه الاجنبية ايضاً . وقد عمد الرئيس الى تحويل المراكب التجارية الى مراكب حربية ، وانشأ بواخر جديدة ، فاصبح اسطول الاتحاد يعد ٥٨٩ قطعة بحرية يعمل فيها سبعون الف نوتي. بيد ان جيش البر كان يذوب امام رشاشات الائتلافيين ، وكانت هزائمه يأخذ بعضها برقاب بعض ، فيجد لنكولن نفسه مرغماً على مناشدة المواطنين التطوع من جديد ، ثم يضطر الى اقرار نظام الخدمة العسكرية الاجبارية .

وكان هذا الجيش ، ككل جيش شعبي ثائر ، يضم بين افراده جنوداً قد لا يتجاوزون سن السادسة عشرة او الخامسة عشرة او الثالثة عشرة احياناً ، وقادة كباراً ما يزالون في الثلاثين من عمرهم . وقد تألق من هؤلاء في السنة الاولى من الحرب ، قائد شاب يدعى ماكليلان تفوّق على اقرانه بمهارة تنظيمه واحكام خططه وسرعة خاطره ، ولكنه كان صلفاً ، مزهواً بنفسه ، كثير الاعتداد والجبروت ، وكثيراً ما كان يأبى التقيد باوامر حكومة واشنطون . فكان لنكولن يتغاضى عن ذلك ، ويعامله باناة وصبر عظيمين ، وربما انتظر عند باب غرفته اذا كان يريد مقابلته ، حتى يفرغ من اجتماع يعقده او امر يشغله فيتسع وقته لاستقباله ! وقد شاع ذلك عنه فاستنكره الناس ولامه اصحابه ، فقال لهم كلمته الشهيرة : « اني على استعداد لان امسك لماكليلان زمام جواده اذا كان سيؤمن لنا النجاح » ! وهي كلمة الزعيم الحق الذي يتناسى شخصه في سبيل امته .

ولم يستطع ماكليلان الافادة من الانتصارات التي احرزها في اول عهده، واثقل كاهل الامة بطلبه المتواصل لقوافل المتطوعين، فاضطر لنكولن اخيراً الى عزله، وتسلم قيادة الجيوش مكانه، لانه لم يجد رجلا يخلفه. وكان قد عكف منذ بدء النزاع على دراسة الفنون الحربية، وانقطع لها بكليته فأصاب منها نصيباً وافياً اهّله للقيام بمهمة القيادة ردحاً من الزمن الى جانب قيامه بمهمة الرئاسة وسهره المتواصل على ادارة شؤون الحكم، ومعالجة ما يعصف به من ازمات وزارية متتابعة، ومن حاجة ملحة متعاظمة الى المال، ومن مؤامرات واضطرابات في شتى انحاء البلاد. يضاف الى هذا خطر كبير تعرّض له وطنه، وكاد يؤدي الى حرب عالمية رهيبة، هو ميل الانكليز والفرنسيين والاسبان الى الولايات الجنوبية لانها كانت سوقاً تجارية لهم تنافسهم الولايات الشمالية عليها وقد تأهبت الدول الاجنبية غير مرة لخوض الحرب انتصاراً للجنوب، لولا حكمة لنكولن الذي وطّأ من جانبه للاجانب فتعرض لانتقاد مواطنيه ولكنه جنّب وطنه خطراً مخيفاً ربما أطاح بـــه في ذلك العهد العصيب.

كان ابراهيم لنكولن يستقبل تلك الخطوب المدلهمة بضحكته الطيبة الرحوم. كان يضحك اذا نعته خصومه بالسعدان العجوز، وعاشق العبيد، والحصان الجموح، والمرائي الحقود. ويضحك كلما وردته رسالة مغفلة يهدده كاتبها بالقتل، ويضعها الى جانب أخوات لها كثيرات في مغلف كتب عليـــه «رسائل تهديد». ويضحك في أصعب الظروف وأحرج المآزق، قائلاً: «يجب ان

أضحك ، فالضحك دعامة الثقة لدي" واذا لم أضحك قضي علي" » وكثيراً ما كان مرحه ينهض العزائم الخائرة ، ويفعل في القلوب المضطربة اكثر مما تفعله الخطب الحماسية الطوال . على ان هذا المرح كان اشبه بقمة الامواج التي تتألق وتسطع ولكنها تغطي هوة لا يسبر لها غور ، فكذلك كانت في نفس لنكولن ، وراء ذلك المرح الظاهر ، هوة من العذاب العاصف ما تفتأ تزداد اتساعاً وعمقاً .

لقد كان عظيم الاحترام للحياة البشرية ، يألم لشقاء الانسان ويثور للدم المسفوك . وكان مرهف الحس ، متدفق العاطفة ، شديد الحنان . فكان يضنيه ويشجيه ان يرى بلاده تقطع اوصالها بأيديها ، وان يكون على رأس هذه الحرب الاهلية التي يقتل فيها الانسان اخاه . كان كل جرح يصيب البلاد يشق جرحاً جديداً في قلبه ، ويشعر بآلام الافراد وآلام المجموع كأنها تنزل به وتثقله بعبئها الفادح ، ويحس كأنه يغرق في امواج الدموع والدماء التي تتحدر من جوارح الامة ، امته .

ومن ثم كان لنكولن لا يسامح قط اولئك الذين يحملون على الجنوبيين ويصفونهم بالوحوش ويذهبون في حماستهم مذهب الحقد والانتقام . وكان السؤال الذي لا يفارق ذهنه هو كيف يضع حداً لهذه الحرب وان يصون سلامة الاتحاد في وقت واحد . لقد كانت كلمة الحرب مرة على شفتيه ، وكان يعاني من هولها اكثر مما يعاني اي انسان آخر . ولكنه كان يعلم ان عليه ان يحتمل ، فقد كان الدافع الى الحرب شرعياً ، وهو لا يزال كذلك وقد كان له من هذه الثقة بعدالة قضيته قوة لا تقاوم ومدد لا ينفد .

ارادت احدى السيدات مرة ان تتملقه فاخذت تحمل على اهل الجنوب ، وتقول ان من الواجب القضاء عليهم جميعاً. وكان يبدو عليه الألم والجزع لان عدد القتلى في ذلك النهار قد بلـغ ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فاخذت تهوّن عليه الامر قائلة : «ولكن يجب ان لا تتكلم هكذا يا سيدي الرئيس . ان القتلى الذين يهمنا امرهم هم ثمانمائة فقط » . فقال لها : « ان الدنيا أوسع من قلبك يا سيدتي » . ثم قال وقد رآها تمعن في ثرثرتها : «كفى ياسيدتي.. انني لا اوافقك واشعر بالعار منك ومن امثالك .. انت التي لم تضحي بشيء تملأين فمك بالحديث عن سحق الجنوب ، بينما لا يعمل الذين يعانون ويضحون الا على اقناعه وهديه . انني قبلت الحرب بقلب سقيم ، ويكاد قلبي يتمزق في مطلع كل شمس . انني قبلتها باسم الانسانية ، وباسم العدالة والرحمة ، وعلى رجاء ان يسود الحب والرحمة في انحاء البلاد . ثم تجيئين انت لتحدثيني عن الانتقـام والتدمير والشر والحقد . ان اهل الجنوب الطيبين مخطئـون . ونحن لا نحاربهم الا لنزيل الخطأ. نحن لا نحارب من اجل الانتقام بل من اجـل مبدأ ، ولكنك انت وامثالك تلوثون مبـدأنا وتحقرونه وتجعلون منه شيئاً تافهاً دنيئاً .. »

وقيل له مرة : « ان جنود الجنوب يقتلون أسرى الشمال » . فقال : « اعلم ذلك.» قيل : «ماذا فعلت انت ؟» فقال : «ارسلت احتجاجاً الى الجنوب . » قيل : «ان هذا لا يكفي ، يجب ان تفعل اكثر من ذلك !» فقال : « ارجو ان لا تطلبوا مني ان آخذ بالثأر واقابل عمل الجنوب بالمثل ! » قيل : « ولم لا ؟ » قال : « انتم

تطلبون مني ان اقتل ! » قيل: «ليس هذا قتلاً وانما هو عقوبة.» فقال: « بل انه لقتل .. وكيف استطيع ان اقتل الاسرى غدراً لجرائم ارتكبها سواهم .. ان علينا ان نضرب مثلاً عظيما طيباً، لا ان نتبع مثلاً رديئاً ذميماً .. »

وقد ضاعف من عذابه في تلك الفترة انه فقد اصغر اولاده وهو في العاشرة من عمره، فامتزجت هذه المحنة الشخصية بمحنة امته، وتضافرتا على سحق ذلك القلب الكبير ، ولم يكن يعينه على تحمل ثقلها المرهق ، سوى المطالعة المستمرة حتى في مكتب عمله، وكانت مآسي شكسبير وحياة واشنطون أبرز ما يصطفيه. ولم يكن ليعزيه عما يهرق في تلك الحرب الضارية من دم بريء، سوى كونها شراً وقتياً لا بد منه لاستئصال شر شنيع مقيم . فقد كان واثقاً بانه يحارب في سبيل قضية عادلة، وكانت هذه الثقة عزاءه المشجع ، فكان يخرج من تلك الليالي الطوال التي يلوذ فيها بنفسه مفكراً متأملاً مصلياً، اكثر شجاعة واقداماً، واقوى عزيمة على النضال والانتصار ، مردداً كلمته المأثورة: «ان قضيتنا هي قضية العدالة ، ويستحيل ان تخفق قضية كهذه، إنه ليجب ان ننتصر ، ولسوف ننتصر » .

ذلك ان ابراهيم لنكولن لم ينس يوماً واحداً القضية الأساسية والهدف الرئيسي للحرب التي تخوضها بلاده . ولو انه نسي ذلك لذكّره به الائتلافيون باساليبهم الوحشية . فقد كانوا يستخدمون العبيد كما كان يستخدمهم الرومانيون القدماء، في حفر الخنادق وبناء الحصون وتعبيد الطرق ، لمساعدة اسيادهم على إحراز

نتصارات كانت حريتهم ثمناً لها. وكانوا يرغمون عشرات الالوف امنهم على الحرب في ظل العلم الذي يرمز الى عبوديتهم، ويسيرونهم في طليعة جنودهم، مهددين المتراجعين منهم بالقتل، جاعلين منهم طعاماً لرصاص البنادق الذي يطلق من اجل تحريرهم. وكثيراً ما كان الزنوج الذين يخشون التمثيل بهم في اعقاب المعارك المخفقة، يهربون من صفوف جلاديهم ليلتحقوا بالمسيح لنكولن كما كانوا يسمون مخلصهم.

ولكن ابناء الولايات الشمالية الذين اجمعوا على قمع عصيان الجنوب، وارغامه على العودة الى الاتحاد، كانوا ما يزالون مختلفي الرأي بصدد الاسترقاق. فرجال الصناعة يرون ان السود يجب ان يصبحوا مواطنين امير كيين يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها البيض. ورجال الزراعة ينوّهون بان عمل العبيد يؤمن وحده ثروة نصف القارة الامير كية، فاذا ما تحرروا انهارت دعامة الاقتصاد الوطني في بعض الولايات وافلس كثير من كبار المزارعين. الاولون يريدون الغاء الرق فوراً، والآخرون، وهم الفئة القليلة، لا يجرأون على معارضة هذه الفكرة فيقولون بالغائه تدريجياً.

وكان لنكولن يصغي الى أقوال الفريقين دون ان يبدي تأييداً لها او استنكاراً. فقد كان يعرف ان واجبه الاول في تلك المرحلة التي تجتازها أمته، هو انقاذ وحدتها، اما قراره بشأن الاسترقاق فكان قد اتخذه منذ أمد بعيد. واذا كان قد جعل مبدأ الحرب المحافظة على الاتحاد لانه اكثر استثارة للحماسة واستنهاضاً للهمم،

فقد كان يعرف ان القضيتين في الواقـــع متداخلتان لا تنفصل احداهما عن الاخرى ، وما كاد يتلقى في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٦٣ نبأ انتصار الجمهوريين على الائتلافيين في معركة انيتام حتى اقبل الى مجلس الوزراء وخاطب اعضاء الحكومة بقوله : كنت قد اعتزمت ان اصدر على اثر اول انتصار نحرزه ، منشوراً بتحرير الرقيق . اني لم اطلع على هذا الامر أحداً ، لكني وعدت به نفسي ، ووعدت به ربي ، وسأبر بهذا الوعد.» فاعترض اعضاء الحكومة على ذلك ، وعدوه تهوراً واندفاعاً . ورأى بعضهم ان يحتفظ بالمنشور فلا يعلن حتى يتم للشمال النصر الاخير ، فقـــال لنكولن : «ثقوا ايها السادة باني عالجت الموضوع بكل روية ، وأنا لا اطلب الآن رأيكم في جوهر الموضوع . ايها السادة لا سبيل لنا الى الفرار من التاريخ . اننا اعضاء هـــذه الحكومة سنذكر في التاريخ بالرغم منا ، ولن تحول خطورة احدنا أو عدم خطورته دون ذلك . اننا بتحرير العبيد نضمن حرية الاحرار . هـــذا هو انبل امل في الوجود ، فأما ان ننفذه بنبل واما ان نضيعه بنذالة ! » ثم اخذ يقرأ المنشور الذي أعده وقد جاء فيه : « في اليوم الاول من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٣ يصبح جميع العبيد في اية ولاية من الولايات الاميركية ، ابتداء من ذلك اليوم ، والايام التي تليه ، والى الابد ، احراراً » .

أمهل لنكولن الجنوبيين الى اول شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٣ كي يعودوا الى الاتحاد ويقبلوا بتحرير العبيد طوعاً ، والا نفذ منشوره عنوة . فكان جواب الولايات الائتلافية على

هذا الانذار انها ضاعفت من ضراوتها في القتال والاستماتة فيه .
فلما انقضى الاجل المضروب ، اذاع لنكولن منشوره ، ولكنه لم يترك الأثر العملي الذي ينشده من ورائه. فالولايات الجنوبية لم تعترف به لخضوعها لسلطة الحكومة الائتلافية ، والولايات الشمالية شكت في قيمته لصدوره عن رئيس الجمهورية وليس عن الكونغرس ، فالعبد ملك لسيده وليس يحق للرئيس تجريد الناس من ملكيتهم .

وعقبت ذلك هزائم متوالية مني بها الشمال . واضعف طول الحرب من حماسة المواطنين فانقطع تطوعهم في الجيش ، مما أرغم لنكولن على اقرار نظام الخدمة العسكرية الاجبارية . وكانت نفقات الدولة تتعاظم ، فاضطر الى زيادة الضرائب زيادة عالية. وكان ذلك كله يضاعف نقمة الناقمين عليه ، ويصرف عنه بعض انصاره من المترددين وخائري العزم ، ويعزز لدى الجمهور أسباب القلق والاضطراب ، ويقوّي خصومه الذين ما يفتأون يدعون الى عقد الصلح ووضع حد للحرب باية وسيلة كانت ويسخرون منه لانه يريد « ان يخلق الحب بالقوة وان ينمي بالحرب شعور الاخاء! » الا ان لنكولن لم يأبه لذلك جميعاً ، وظل على ثباته في موقفه ، وصلابته في عقيدته ، واصراره على مواصلة النضال الى النهاية ، مؤمناً بان الغلبة فيه لن تكون الا لقوى الحرية التي أولاه التاريخ شرف قيادتها .

ويروي مؤرخو سيرة لنكولن مآثر انسانية رائعة قام بها في هذه الحقبة العاصفة ، منها ما يتصل بنزوله الى خطوط النار معرّضاً نفسه غير مرة الى خطر الموت ، ومنها مايتعلق بتفقده حال المرضى

وسهره على راحتهم وبقائه الساعات الطوال الى جانب أسرّتهم معزياً ومسلياًومشجعاً، ومنها مايعرض لعلاقته بالمحاربين وبافراد أسرهم وهي علاقة ملؤها العطف والحدب والرعاية الابوية الرؤوم.
ومن طريف ما يروونه في هذا الصدد : انرجلاً جاءيسأله عملاً لأنه قد فقد ساقه في الحرب، ولم يكن لدى الرجل مايثبت دعواه، فقال له مازحاً : « ماذا ؟ ليس لديك ايّ اوراق او شهادات او ايّ شيء يثبت لنا كيف فقدت رجلك.. فليت شعري كيف اتبين انك لم تفقدها في فخ وقعت فيه وأنت تسطو على بستان جارك ؟ ! » .

وزار مرة ميدان القتال فسمع جريحاً يئن وهو في النزع الاخير ويردد : « امي .. امي » فبكى لنكولن وذهب اليه وسأله : « ماذا استطيع ان افعله لك يابني العزيز ؟ » فاجاب الجريح : « ارجو ارسال هذه الرسالة الى امي ! » فازداد بكاء لنكولن وطمأنه الى تنفيذ رغبته ، وأمر بارسال رسالته الى امه في الحال مع راية خاصة .

وكذلك يروي مؤرخوه اقاصيص شتى تدور حول الشفقة العظيمة التي كان يقابل بها طلبات العفو التي تتقدم بها اليه امهات الجنود الذين يحكمون بالاعدام او نساؤهم ، فقلما كان يرفض طلباً من هذا النوع ، الا اذا كانت جناية الجندي المحكوم مما يتعلق بالخيانة العظمى ، مما أثار عليه وزراءه وقواده ، فكان يقول لهم : « اليس الأفضل للوطن ان يكون هؤلاء الشبان فوق ارضه ؟ ان الولايات الاميركية قد امتلأت بالثكالى من الأرامل ، وارجو ان لا تسألوني ان ازيد عددهن » . وقد عفا مرة عن

جندي هرب من الجيش لملاقاة خطيبته ، فلاموه في ذلك ، فقال لهم انه ربما كان يصنع صنيعه لو كان في سنه ، ثم قال : « ان المسألة مسألة أقدام ، فكيف تريدون من رجال ان يخوض غمرات القتال بقلب مثل قلب يوليوس قيصر ، اذا كانت قدماه تأبيان حمله الى ساحة الحرب ؟ » .

ومن أمتع ما رواه مترجموه في هذا الصدد ، انه التقى مرة في احدى الثكنـــات بجندي شاب يدعى وليم سكوت حكمت عليه القيادة العامة بالاعدام ، لان سنة من النوم اخذتـــه وهو يتولى الحراسة بعد ان قطع شوطاً كبيراً سيراً على قدميه وتطوع للقيام بالحراسة مرتين متواليتين ترفيهاً عن صديق له مريض ، وقـــد وُجد نائمـــاً في مكانه ، فطفق الفتى يتوسل الى الرئيس ان يعفو عنه ، مقسماً له بأنه لم يكن يريد ان يغفو ولكن النعاس قهره بعد سير طويل وسهر متواصل فسأله : «هل سرت مسافة طويلة ؟ » فقال « سرت ثلاثة وعشرين ميلا يا سيدي» . قال : «وقمت بالحراسة نوبتين متواليتين ؟ » قال : «نعم ياسيدي» قال : « ومن الذي امرك بذلك؟ » فقال : « اني فعلته متطوعاً يا سيدي لأن اينوخ وايت كانمريضاً ونحن من بلد واحـــد » .

فقـــال لنكولن : « اني لا استطيع ان القى الله ودم هذا الشاب المسكين في عنقي » ثم قال له : « انك لن تعدم يابني لاني واثق بأنك لم تستطع التغلب على النعاس ولمتستسلم اليه بارادتك ، ولسوف اضع ثقتي بك فأعيدك الى كتيبتك ، ولكن هذا الامر يضعني في موضع محرج وأود ان اعلم ماذا انت فاعل لسداد هـــذا

الدين ! » فتلعثم الشاب وتردد ، اذ لم يتسع خياله المحدود للمعنى الذي قصد اليه الرئيس ، وخيل اليه أنه يطلب منه مالا مقابل العفو عنه ، فقال له : « لا أدري هل نملك المقدار الكافي من المال ، فنحن فقراء ، الا ان لدينا مبلغاً قليلاً قد اقتصدناه ، وفي وسع والدي ان يبيعا مزرعتهما . وربما ساعدنا بعض الاصدقاء ايضاً ... فان كنت تستطيع الانتظار ، فان في مقدوري ان اجمع من ذلك كله الفين او ثلاثة آلاف من الفرنكات ! » فلم يغضب الرئيس لغباوة الفتى التي انطقته بهذا القول الجارح ، وقال له بأناة ورفق : « كلا يا بني ، فان ديني كبير ، وليس تسديده مما يدخل في طاقة أسرتك ومزرعتك واصحابك . وانما هناك شخص واحد هو القادر وحده على وفائه ، واسم هذا الشخص هو وليم سكوت . فاذا ما اخذ وليم سكوت منذ اليوم في أداء واجباته ، وكان في قدرته يوم مماته ان يقول : لقد وفيت بالوعد الذي قطعته للرئيس ، لاني قمت بواجبي كجندي ، فحينئذ يتسدد الدين ! » .

وكان هذا الرجل الكبير ، اذا ما لامه احد على شدة عنايته بالمستضعفين والمضطهدين ، يجيبه بقوله : « اني لأعرف جيداً أية حالة اعانيها لو كنت في مكانهم ! » وهي جملة تكشف عن سر الرابطة الوثقى التي كانت توحد بينه وبين شعبه ، حتى لكأن قلوب العشرين المليون أميركي كانت تخفق في قلبه .

المعارك الفاصلة

●

تتابعت في صيف ١٨٦٣ عدة معارك كبيرة كان النصر فيها سجالا بين الشمال والجنوب. وكان اعظمها شأناً معركة غيتسبورغ التي دامت من الثالث الى الخامس من تموز (يوليو) فكلفت الفريقين ثمانية آلاف قتيل وثلاثين الف جريح ، وانتهت بانتصار الجمهوريين ، وكانت نقطة التحول في الحرب الاهلية الاميركية ، اذ ادت الى سلسلة من الانتصارات احرزتها القوى الجمهورية. وقد دفن اكثر ضحايا هذه المعركة في ساحة القتال التي صرعوا فيها. وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة ، انشيء في هذه الساحة نصب تذكاري للشهداء الذين سقوا ترابها بدمائهم الزكية ، فالقى لنكولن في حفلة تدشينه خطاباً شهيراً يتدارسه الطلاب الاميركيون الناشئون ، قال فيه :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت ، انشأ آباؤنا في هذه القارة امة جديدة رضعت لبان الحرية ونذرت نفسها للمبدأ القائل بان الناس جميعاً قد خلقوا متساوين ونحن الآن مشتبكون في حرب اهلية ضروس تُمتحن فيها هذه الامة ، وسيعرف العالم من هذا الامتحان هل تستطيع الحياة والبقاء ، هي او اية امة غيرها نشأت نشأتها

ونذرت نفسها مثلها لذلك المبدأ .

« وها نحن اولاء قد اجتمعنا في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب ، جئنا اليه لنجعل من بعضه مثوى خالداً لاولئك الذين جادوا بحياتهم كي تحيا هذه الامة . وحقٌ علينا كل ما نقوم به في سبيل ذلك . على انه ليس في وسعنا ان نقدس هـذه الارض او نباركها ، اذ ليس في متناول طاقتنا ان نزيد في مكانتها او ان ننقصها ، وقد افاض عليها الابطال الذين ناضلوا فيها ، سواء منهم الذين ماتوا او الذين ما يزالون احياء ، ما افاضوا من الجـلال والقداسة . ولن يذكر العالم الا قليلاً ، ما تنطق به افواهنـا في هذا المكان ، ولكنه لا يستطيع ان ينسى ابداً ما صنعـه هنا اولئك الابطال .

« وانه ليجدر بنا نحن الاحياء ، ان ننذر نفوسنا ههنا ، للعمل النبيل الذي سعى لنصرته اولئك الذين حاربوا هنا ، وخطوا به خطوات كريمة . نعم ، يجـدر بنا ان ننذر حياتنا للقيام بالمهمة العظيمـة التي يجب ان نتمها ، مستمدين من هؤلاء الاموات المكرّمين اخلاصاً متزايداً للمبدأ الذي بذلوا في سبيله اقصى ما يمكن من اخلاص ، وان نعقد العزيمة الصادقة عـلى الا تذهب ارواح هؤلاء الشهداء ضياعاً ، وعلى ان تُبعث الحرية في هـذه الامة ، بعون الله ، بعثاً جديداً ، والا تمحى من الارض الحكومة الشعبية التي يؤلفها الشعب في سبيل الشعب » .

وفي سنة ١٨٦٤ انتهت مـدة رئاسة لنكولن ، فرأى من واجبه ان يرشح نفسه لها مرة ثانية ، للاضطلاع بمهمة الحكم في تلك

المرحلة العصيبة التي تجتازها البلاد والتي تقع على عاتقه تبعتها الاولى . وقد خاض المعركة الانتخابية اشخاص عديدون بينهم القائد ماكليلان ، فهاجموه بقوة وانتقدوه انتقاداً عنيفاً ، الا ان ذلك لم يؤثر في مكانته الرفيعة لدى مواطنيه ، فأحرز ٢١٣ صوتاً وأحرز منافسوه جميعاً ٢١ صوتاً .

وكانت معارك سنتي ١٨٦٤ و١٨٦٥ معارك فاصلة ، ابتسم النجاح فيها للشمال الذي عانى كثيراً من الآلام ، بهمة قادة ميامين اختارهم لنكولن فأحسن اختيارهم ، منهم شيرمان وشيريدان وبوتلر ، ومنهم مياد بطل موقعة غيتسبورغ ، وعلى رأسهم جميعاً عصامي آخر نشأ من عامة الشعب ، هو يوليسيس غرانت احد القادة الكبار الذين أنجبهم العالم الجديد . ومما يروى انه عندما تتابعت اخطاء ماكليلان اثناء قيامه بعبء القيادة ، طلب لنكولن منه ارسال تقارير مفصلة من الميدان الى البيت الابيض كل يوم ، فغضب الجنرال وأرسل الى البيت الابيض في احد الايام برقية جاء فيها : « أسرنا اليوم ست بقرات فماذا نصنع بها ؟ » فجاءه الردّ من لنكولن : « احلبها » .

وقد بذل غرانت جهداً عظيماً لتحقيق خطة حربية أوحاها اليه الرئيس ، وهي خطة ترمي الى تطويق الائتلافين ومحاصرتهم بحراً من سوث كارولينا شمالاً حتى فلوريدا جنوباً ، لعرقلة تجارة الجنوب الخارجية والضغط عليه اقتصادياً واضطراره اخيراً الى الاستسلام . وكان لتفوق القوى البحرية الشمالية اثر كبير في نجاح هذا الحصار . فأخذت المواد الضرورية للحياة تتناقص في

الجنوب، حتى ساد الفقر والشقاء واصبح تموين الجيش امراً متعذراً.
ورافق ذلك الحصار البحري، تطويق بري. وقد ضرب هذا الطوق على نطاق واسع، ثم بدأت أبعاده تتقارب، واخذ يلتحم شيئاً فشيئاً، رغم الجهود اليائسة التي بذلها جفرسون دافيس رئيس الحكومة الائتلافية، والجنرال لي قائد جيوشها، ورغم المقاومة الضارية التي ابدتها هذه الجيوش في دفاعها عن مواقعها.

وشجعت هذه الانتصارات ابراهيم لنكولن على ان يخطو خطوة حاسمة في سبيل تحرير الرقيق، بعد ان رأى ان المنشور الذي اذاعه لم يحقق الغرض المنشود لانه لم يصدر عن سلطة تشريعية يخولها الدستور حق الفصل في مثل هذا الامر الخطير. فطلب من الكونغرس أن يقرّ تعديلاً للدستور يمنع الاسترقاق بموجبه الى الابد، فاقرّ الكونغرس هذا التعديل في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٥، بعد مناقشة طويلة بصدده، ثم احيل على الولايات المختلفة للموافقة عليه كي يصبح قانوناً نافذاً، فلم تقرّه هذه الولايات الا في ١٨ كانون الاول (ديسمبر) من تلك السنة، بعد أن أحرز الشمال انتصاراته الحاسمة.

وفي ٤ آذار (مارس) سنة ١٨٦٥ احتفلت واشنطون احتفالها التقليدي بالرئيس الجديد القديم، وساهم في هذا الاحتفال جنود من الزنوج، فكانوا الزنوج الاول الذين ساهموا في القارة الاميركية باحتفال رسمي. ولما وقف ابراهيم لنكولن بين الجمهور الحاشد الذي يحتفي برئاسته ويبتهج بعهده الجديد، ليلقي خطابه التقليدي، راع ذلك الجمهور الذي أحبه وأخلص له: أن يرى

الشيخوخة قد عاجلته وهو ما يزال في سن السادسة والخمسين ، فقوست كاهله ، وحنت ظهره ، وذهبت بنضارة محياه ، وطبعته بطابع مخيف من الألم ، يرتسم على قسماته التي حفرتها عواصف النضال العنيف ، ويتراءى في عينيه الطيبتين كأنـــه انعكاس الغروب .

وتحدث لنكولن في ذلك الاحتفال فقال : « اننا نؤمـــل ، ونطلب من الله بحرارة ان تنتهي هذه الحرب الرهيبة قريباً ، ولكن اذا اراد الله ان تدوم هذه الحرب حتى تبيد ثروة تراكمت بالعمل المسخّر الذي قام به العبيد طوال مائتين وخمسين سنة ، وحتى يُكفّر الدمُ الذي يسفكه السيف عن الدم الذي اهرقـــه السوط ، فينبغي لنا ان نردد حينئذ الحكمة التي قالت منذ ثلاثة آلاف سنة : ان عقاب الله حق وعدل !

« لنتابع مهمتنا الى النهاية ، دون ان نضمر البغض لاحد ، بل بأحسان نحو الجميع ، ولكن بصرامة شديدة فيما ارانا الله انه حق . ولا بد من ان يجزينا الله على عملنا ، فيسود الوفاق امتنا ، ونصل الى سلام عادل دائم في حياتنا الداخلية وفي علاقاتنا بالامم الاخرى » .

وفي ذلك النهار الربيعي الجميل ، استمرت السماء تمطر رذاذاً منذ الصباح الباكر . ولكن بينما كان لنكولن يلقي هذه الكلمات القدسية التي تذكّر بكلمات الانبياء القدامى الذين كان الايمان حاديهم في النضال من أجل حرية اوطانهم وسعادة شعوبهم ، اخترق الغيوم شعاع من الشمس أضاء ساحة الاحتفال ، والتمع على وجهه الشاحب المعذّب ، كأنه بشير الانتصار العظيم ...

الانتصار

•

كان الطوق الذي ضربه الجيش الجمهوري حول الائتلافين ، يضغط عليهم يوماً بعد آخر ، حتى وصل بجبهة القتال الى ضواحي ريشموند . وقد اراد لنكولن أن يقيم دليلاً جديداً على عظمته ورحابة صدره ، فمد يده الى خصومه داعياً اياهم الى التسليم ، ولكنهم رفضوا مصافحة يده الاخوية ، وقبول شروطه القاضية بتحرير الرقيق والعودة الى الاتحاد ... ولما وثق بان النخاسين وأشياعهم لن يتنازلوا ، الا بالقوة ، عن امتيازات نالوها بالظلم والعنف ، أمر جيوشه بالهجوم على ريشموند ، فما عتمت ان تحطمت مقاومتها في الثالث من نيسان (أبريـــل) سنة ١٨٦٥ : وغادرهـــا الرئيس دافيس والقائد لي بعد ان أمرا بأحراق المستودعـــات والمؤسسات العامة لئلا ينتفع بهـــا الفاتحون ، فانتشرت فيهـــا الفوضى ، وشبت الحرائق ، وانطلق اللصوص والمجرمون يعيثون فساداً ، حتى خيل للناس أن نهايتهم قد اقتربت . ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا موسيقى الجيش الجمهوري ، وشاهدوا طليعته التي تؤلفها فرقة من الزنوج كان اكثرهم عبيداً في هذه المدينة نفسها ، فدخلوها فاتحين منتصرين ، وما لبثوا إن اقروا النظام فيها ، واطفـــأوا

الحرائق ، وانقذوا الجرحى ، واعادوا الامن والسكينة الى النفوس .

ودخل لنكولن العاصمة التي قهرها بعد حرب دامت خمسة أعوام ببساطة العظيم الذي يهمه أن يكون عظيماً في ذاته وليس في المظاهر التي يحيط نفسه بها ، ولم يكن يرافقه سوى عشرة أنفار وضابط واحد ، فاحتشد لرؤيته جمهور حافل اكثره من الزنوج ، زنوج الجنوب ، الذين كانوا عبيداً ارقاء الى ساعات قليلة ، والذين تحطم نير عبوديتهم حين تحطمت مقاومة المدينة ، فكانوا يهرعون نحو مسيحهم يحاولون تقبيل يديه بعاطفة تكاد تكون دينية ؛ وهو يصافحهم برفق واخلاص .

ونسي الوطني الكبير الاحقاد والاهانات والخيانات ، كي يوطد وحدة الوطن ويضمد جراحه . وعاد الى واشنطون في التاسع من نيسان (ابريل) ، فلم يكد يصل اليها حتى بلغه نبأ استسلام القائد لي مع ٢٥ الف جندي و ٧٥٠ مدفعاً ، وكان هذا النبأ يعني انتهاء الحرب الاهلية .

وانقضت خمسة ايام تألقت فيها مجالي الفرح بالنصر ، والابتهاج بالسلام ، والاعجاب بالرئيس العظيم الذي وحد الوطن ومحا عنه عار الرق . وكانت غبطة الناس تمتزج بيقظة الطبيعة الخارجة من رقادها الشتوي العميق ، وبنشوة الربيع الذي كان ينثر بيده السخية ، البراعم الذهبية والاقاحي البيض في الحقول التي سقتها الدماء ويفتق اكمام الزنبق والسوسن في جنائن البيت الابيض ، ناشراً عبيرها الساطع في الآفاق .

وفي اليوم السادس، وهو يوم الجمعة الحزينة الموافق ١٤ نيسان سنة ١٨٦٥، أفاق لنكولن زاخر القلب بالعواطف الانسانية الكريمة، فوقّع مرسوماً بالعفو عن محكوم بالاعدام، ثم قضى ساعة مع ولديه روبير العائد من الجبهة وتاد الصغير الاخرس، وصحب زوجته بعد الظهر في نزهة قصيرة بالعربة، ثم ذهب معها الى مسرح فورد برفقة صديق له يدعى رابتون وخطيبته هاريس ابنة احد اعضاء مجلس الشيوخ، لحضور حفلة تمثيلية تقام فيه احياء لذكرى موقعة سمتر التي استردت فيها جيوش الجمهورية حصنها الشهير. فما كاد الرئيس يدخل مقصورته، حتى تجاوبت ارجاء القاعة بالهتاف والتصفيق، وعزفت الموسيقى النشيد الوطني احتفاء بالمحرر العظيم، ثم ابتدأت الحفلة.

وفي احدى فترات الاستراحة أخذ النظارة يهتفون بحياة «الأب ابراهام» ويدعونه الى الخطابة فيهم، فوقف متأثراً وقال:

« ان شعوركم الرقيق قد ترك في نفسي اعمق تأثير.

« لقد حققنا الغرض الذي حاربنا من اجله ايها الاصدقاء بعد اربع سنوات سود شداد، وان استسلام الجنرال لي لن يدع في بلادنا سوى ولايات اميركية متحدة واحدة. ليس عندي شيء كثير اقوله لكم، فانا لم اسيطر على الحوادث وانما الحوادث هي التي سيطرت علي. ولكني كنت انظر اليها بيقين واحد وايمان ثابت. لقد عملنا على صيانة الاتحاد ومحونا ظلماً من افدح مظالم الانسانية. والواجب الذي ينتظرنا هو اقرار الوئام واصلاح ما اتلفته الحرب وابرام اتفاق عادل والسير بالدولة في

طريق الاستقامة والنجاح . فعلينا الا نضمر الحقد لأحد ، وان نحسن الى الجميع ، وان نسير بالامة الى الامام في سبيل حـــرية جديدة . ان حكومة الشعب التي تنبثق من الشعب وتعمل لمصلحة الشعب لن تفنى من الارض » .

وعاد « الأب ابراهام » الى مقعده بين هتاف الجمهور ، وبينما كان منصرفاً مع زوجه وضيفه الى مشاهدة التمثيل ، وظهورُهم الى باب المقصورة ، انشقّ الباب قليلاً ، وتسلل منه شبح يشهر مسدساً باحدى يديه ، وانقض على الرئيس مصوباً مسدسه الى صدغه ، واطلق النار .

اقترف ذلك الرجل جريمته الشنعاء ، ثم وثب من المقصورة الى المسرح يريد الهرب ، فانتبه السيد رابثون وجذبه من طرف سترته ، فتعثرت قدم المجرم بقضبان الرايات التي تزين المقصورة ، وسقط على المسرح فأصيب بكسر في احـــدى ركبتيه ، ولكنه نهض رغم ذلك واتجه الى احد مخارج المسرح وهو يصيح ، وقد استل خنجراً من حزامه : « الويل لمن يقترب مني » . فاعترضه الملقن يريد إيقافه ، واذا به يهوي الى الارض مصاباً بطعنة من خنجر الجاني ، بينما كان هذا يثب الى الدهليز ويغادر المسرح من بابه الخلفي ، حيث كان في انتظاره رفيق له مع جوادين امتطياهما وانطلقا بهما متوارين عن الانظار .

وظل الجنود والاهلون يطاردون الشقي وقد عرفوه ، حتى اهتدوا الى آثاره بعد بضعة أيام ، فحاصروه في حظيرة للماشية باحدى المزارع وانذروه بتسليم نفسه ، فلما رفض أشعلوا النار

في الحظيرة ، فحاول الهرب ثانية ولكنه وقع هذه المرة صريعاً برصاصة اطلقها عليه احد الجنود .

وكان هذا القاتل ممثلاً بارعاً يدعى جون وايلز بوث ، وقد عقد النية على اغتيال لنكولن منذ زمن بعيد لشدة تعصبه للجنوب ، فدبر اول الامر خطة لاختطافه كي يجعله رهينة لدى الجنوبيين يساومون الحكومة عليه للفوز بالشروط الملائمة لهم عند عقد الصلح ، وألّف لهذا الغرض عصابة من الممثلين العاطلين عن العمـــل ، ولكنه اخفق في خطته غير مرة ، لان الرئيس كان يعرض له ما يعوقه عن الخروج الى النزهة في الطريق الخالية المؤدية الى بلدة برايانتاون كلما كمن له فيها افراد العصابة التي تتآمر عليه ، فاستشاط بوث غيظاً واقسم ليقتله في اول فرصة تعرض له ، ولما اذاعت الصحف ان رئيس الجمهورية سيشهد الحفلة التمثيلية التي تقام في مسرح فورد ، وان القائد غرانت سيكون في رفقته ، رأى ان الفرصة قد تهيأت له فاعتزم ان يقتل في آن واحد كلاً من لنكولن وغرانت . ولكن القائد وزوجته اعتذرا عن مرافقة الرئيس في تلك الليلة لسبب عائلي طارىء ، فنفذ الجاني جريمته في ابراهيم لنكولن وحده .

وقد وقعت الجريمة النكراء في لحظات معدودة ، حتى ان الجمهور الذي انتقل بغتة من ملهاة مضحكة الى افجع مأساة ، ظل هنيهة في دهشة وذهول . ولقد حاول لنكولن النهوض لما اصابته الرصاصة في صدغه ، ولكنه ما لبث ان تداعى على مقعده كسنديانة شامخة تهوي تحت ضربة فأس . ثم فقد وعيه لشدة ما نزف الدم

سن جرحه . وهرع الجند فحملوه الى منزل خياط بجانب المسرح للعناية به . ولكن الاطباء وقفوا عاجزين ، فالرصاصة الغادرة قد اصابت الدماغ ، فليس من سبيل الى العلاج ، وليس من أمل في الشفاء . ولم تمض ساعات قليلة حتى توقف عن الخفقان ذلك القلب الكبير ، واصبح صاحبه ملكاً للتاريخ !

وبكت الولايات الاميركية ابنها الذي اصبح اباً لها أزال فرقتها ووطد وحدتها . وسار الزنوج في طليعة الموكب الذي حمل مسيحهم الى مقره الاخير في سبرنغفيلد. وتلاقى الخصوم والانصار في مأتم الرجل الذي بذل حياته في سبيل توحيدهم وتآخيهم ؛ وجلجلت اجراس الكنائس على اختلاف طوائفها ، تنعى بصوتها النحاسي المهيب ، الرجل الذي لم ينتسب الى كنيسة منها ولكنه كان من اعظم الناهجين على شرعة الحب والرفق والأخاء والمساواة .

بعد لنكولن

•

حقٌ علينا ان نتساءل عن مصير الزنوج بعد انتهاء الحرب الاهلية ومصرع ابراهيم لنكولن .

لقد أعتقت هذه الحرب ، عملا بالتعديل الثالث عشر للدستور الذي اقترحه لنكولن والذي تمت الموافقـــة عليه في ١٨ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٦٥ ، أربعة ملايين رقيق ، كما أعتقت اولادهم وأحفادهم الذين صاروا يولدون احراراً .

ولم يكتف مريدو لنكولن بهذا التعديل الذي قضى على نظام الرق نهائياً ، فاستطاعوا حمل الكونغرس على اقرار تعديلـــين آخرين عرفا بالتعديل الرابع عشر والتعديل الخـــامس عشر ، اصبح الزنوج بموجبهما يتمتعون بالجنسية الاميركية وبكافةحقوق المواطن المدنية والسياسية . ولكن هذين التعديلين في الدستور لم يتجاوزا في الواقع دفتي الدستور نفسه . فلئن كان الزنجي قد اعتق من نير العبودية فلم يعد سلعة تبـــاع وتشرى ، وهو امر خطير وحدث كبير في تاريخ الولايات المتحدة ، الا أنه ظل في نظر اكثر المواطنين الاميركيين ، ولا سيما ابناء الجنوب منهم ، عبداً رقيقاً من الناحية المعنوية .

يقول الاستاذان فرحات زيادة وابراهيم فريجي في كتابهما «تاريخ الشعب الامير كي» الذي أصدرته جامعة برنستون الاميركية:

« يختلف العُرف المتبع عن القانون احياناً ويقوى عليه. ومشكلة الزنوج في الولايات الجنوبية من هذا القبيل. فعلى الرغم مما ورد في التعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور، من منح الزنوج حق التصويت، فقد وضعت جميع العراقيل من قبل الحكومات الجنوبية امامهم، مانعة اياهم ممارستهم هذا الحق. فأوجبت على الناخب دفع ضريبة عنق، او اجتياز امتحان في القراءة والكتابة، او تفسير مادة من الدستور، وغير ذلك.

« لا شك في ان هذه القوانين هي عامة تشمل أحكامها البيض والزنوج على السواء. ولكن يجب الا يفوتنا ان تطبيقها لا يتناول في الواقع غير الزنوج والطبقة الفقيرة من البيض. فمن الخطأ اذاً الظن بان حق التصويت في الجنوب يسير على قاعدة المساواة بين السكان كما هي الحال في الشمال.

« ولا بد من القول إن المساواة المطلقة في مختلف الولايات المتحدة، بين البيض والزنوج، لا وجود لها في الواقع. فالزنوج في مركزهم الاقتصادي يسيرون في المؤخرة. والاختلاط الاجتماعي بين الجنسين يكاد يكون مفقوداً. وتظهر هذه الامور واضحة في الجنوب حيث حُرّم على الزنوج الجلوس في القطارات وسيارات النقل والامكنة العمومية، بجانب البيض. فأحياء سكناهم واسواقهم العامة ومعابدهم ومؤسساتهم، قامت منفصلة عن مساكن البيض واحيائهم. »

وفي وسعنا ان نضيف الى هذا ان الزنوج لا توضع العراقيل امام ممارسة حقهم في الانتخابات ، بل يمنعون من ذلك بالقوة . فهم يعانون اضطهاداً عنيفاً وحقداً عنصرياً مغرقاً في الرجعية . وما تزال حتى الآن تنصب المشنقة في اقرب مكان لأعدام زنجي اغضب احد المواطنين البيض ، او يرجم آخر لأنه نظر الى امرأة بيضاء نظرة لم تطمئن اليها !

وقد تحدثنا في فصل سابق عن الزنجي في عصر لنكولن كما وصفته الكاتبة بيتشر ستاو في روايتها الشهيرة «كوخ العم توم» وكنا نود لو نتحدث بمثل ذلك الاسهاب عن زنجي العصر الحديث كما وصفه الكاتب الاميركي الاسود ريتشارد رايت في كتابه الرائع «ابناء العم توم» لولا ان ذلك يخرج بنا عن موضوع هذه الدراسة الخاصة بحياة لنكولن وعصره ...

ومن عجائب الامور ، ان الرأسماليين الذين كانوا في طليعة المناضلين من اجل تحرير العبيد لحاجة مصانعهم الى اليد العاملة ، اصبحوا الآن ، وقد تحرر الزنوج من عبوديتهم ، من اول العاملين على تغذية الحقد العرقي الذي ينالهم بأسوأ الذل والامتهان . لان اضطهادهم على هذا الشكل ، يعزلهم عن الحياة العامة ، ويضطرهم الى العمل في المصانع والمناجم بأدنى الاجور كي لا يموتوا جوعاً ، فضلاً عن ان إذكاء الحقد العنصري بين البيض والسود يحول دون

ظهر هذان الكتابان : «كوخ العم توم» و «ابناء العم توم» في سلسلة «كنوز القصص الانساني العالمي» الصادر عن دار العلم للملايين ، وقد نقلهما الى العربية الاستاذ منير البعلبكي (الناشر) .

تضامن العمال منهم في الكفاح من اجل حقوقهم الاجتماعية ورفع مستوى حياتهم الاقتصادي .

ولكن زنوج الولايات المتحدة الذين يبلغ عددهم الآن ١٤ مليوناً اي ١١ بالمائة من مجموع السكان، وهم اكثر وعياً واوفى ثقافة من عبيد الأمس ، لا يستكينون للاضطهاد الذي يلاقونه مسلّمين بالامر الواقع ، بل يناضلون باستمرار في سبيل الحصول على المساواة الحقيقية مع المواطنين الآخرين ، ورفع مستواهم الاقتصادي والسياسي ، يؤيدهم في ذلك المواطنون البيض الواعون والمثقفون المستنيرون ، وارثو رسالة لنكولن العظيم في ثورة الفكر والنضال من اجل حقوق الانسان .

كلمات مختارة لابراهيم لنكولن

●

● ان بيتاً منقسماً على نفسه لا يثبت . وانا اعتقد بان هذه الدولة لا تستطيع ان تدوم نصفها حرٌّ ونصفها عبد .

● حين يحكم الرجل الابيض نفسه ، يكون ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب ، ولكنه حين يحكم نفسه ويحكم رجلاً غيره ، فان ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب : انه الاستبداد بعينه .

● ان من حق اية امة في اية جهة ، اذا ما احست في نفسها الميل واستشعرت القوة ، ان تثور في وجه الحكومة القائمة وتعصف بها ، ثم تقيم بعد ذلك من الحكومات ما يكون اكثر ملاءمة لها .

● انكم باعتيادكم عدم الاكتراث لانتهاك حقوق غيركم ، انما تفقدون بذلك حقيقة استقلالكم أنتم ، وتصبحون طعمة لكل طاغية يخرج من بينكم .

● في النابهين الطيبين من الناس ، ممن تتوافر فيهم الكفاية لان يحسنوا أيّ عمل يوكل اليهم ، كثيرون لا تمتد اطماعهم الى ما هو أبعد من مقعد في المجلس النيابي ، او من مركز في الحكومة ، او من وصول الى كرسي الرئاسة . ولكن هؤلاء لا ينتمون الى اسرة الضراغم ولا الى جماعة النسور .

● انكم تستطيعون أن تخدعوا كافة الناس ردحاً من الوقت ، وبعض الناس طول الوقت ، ولكنكم لن تستطيعوا ان تخدعوا جميع الناس إلى الابد .

مراجع الكتاب

●

Emile Ludwig ; Abraham Lincoln .
Yvonne Pitrois ; Abraham Lincoln, Le Libérateur des Esclaves.
John Drincowter ; Abraham Lincoln.
Beecher-Stowe ; La case de l'oncle Tom.
Olivier Lesourd ; Les géants de la politique.
André Maurois : Histoire des Etats-Unis .
Auguste Moireau ; Histoire des Etas-Unis ...
Nevins et Gommager ; Petite histoire des Etats-Unis.

محمود الخفيف : ابراهيم لنكولن هدية الاحراج الى عالم المدنية ، مجلة الرسالة ، السنة السادسة ، الاعداد ٢٤١ الى ٢٨٦ ، وقد اخذنا عن هذه الفصول بعض ما استشهدنا به من اقوال لنكولن .

الدكتور نجيب الارمنازي : ابراهيم لنكولن ، مجلة المقتطف ، المجلد ١٠٥ ، الصفحة ١٤٥ .

فؤاد صروف : مجمل من ترجمة الرئيس لنكن ولمحة من شخصيته ، مجلة المقتطف ، المجلد ٧٧ ، الصفحة ٢٧١ .

حسن الشريف : مصرع ابراهيم لنكولن ، مجلة الهلال ، المجلد ٤٧ ، الصفحة ٤١٧ .

احمد فريد الرفاعي : الشخصيات البارزة التاريخية .

محمد عطية الابراشي : قصص في البطولة والوطنية .

فرحات زيادة وابراهيم فريجي . تاريخ الشعب الاميركي .

روبرت شرمان : أشهر رسائل الغرام ــ تعريب سمير شيخاني .

فهرست



سلسلة اعلام الحرية

١ ــ سعد زغلول رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي (الطبعة الثالثة)
٢ ــ ابراهيم لنكولن : محرر العبيد (الطبعة الثالثة)
٣ ــ مدحت باشا ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين : (الطبعة الثانية)
٤ ــ روبسبيير بطل الثورة الفرنسية (الطبعة الثانية)
٥ ــ جمال الدين الافغاني : حكيم الشرق (الطبعة الثالثة)
٦ ــ شوبان : نشيد الحرية والوطنية (الطبعة الثانية)
٧ ــ صلاح الدين الايوبي : رجل غيّر وجه التاريخ (الطبعة الثالثة)
٨ ــ كرومويل : بطل الثورة الانكليزية (الطبعة الثانية)
٩ ــ ابو ذر الغفاري : اول ثائر في الاسلام (الطبعة الثالثة)
١٠ ــ ديموستين : بطل اثينا (الطبعة الثانية)
١١ ــ غاندي : ابو الهند (الطبعة الثالثة)
١٢ ــ محمد عبده : بطل الثورة الفكرية في الاسلام (الطبعة الثانية)
١٣ ــ سون يات سن : بطل الثورة الصينية (الطبعة الثانية)
١٤ ــ السابقون (الكواكبي ــ الجزائري ــ الزهراوي ــ امين الريحاني ــ عمر فاخوري)

مطابع دار العلم للملايين
بيروت